

تجريف الهوية العربية بفعل العولمة

بقلم : د . محسن خضر*
القاهرة

والخصوصية الثقافية، وأعادت حرب الخليج الثانية طرح المسألة مجدداً في ظلّ مستويين، حصار العولمة وتداعياتها التي عنت بتفكيك الدولة القومية، بنى وشكلا وآليات، ومن ناحية ثانية التناقض الظاهر بين الداخلي والخارجي، وبوز في المساحة الفكرية خطابان بشأن الهوية الأول خطاب متعصب، مكتفى، متغلق، حاسم يرى أن الهوية - العربية الإسلامية .. عملية مكتملة وتامة ولاتاريخية ولا مجال لمناقشتها ومثلث القوى القومية والأصولية هذا الخطاب، أما الخطاب الثاني فهو والخطاب المعولم الذي دعا إلى إسقاط وهم الهوية وخرافيته تحت دعوى الخصوصية الثقافية والذاتية الثقافية، وإن الهوية الحقيقية تندعم في الهوية الإنسانية الواحدة وإن التجليات الاثنية والوطنية والقومية والدينية ماهي إلا استعارات العقل الزائف والأسطوري (موقف مراد وهبه والعفيف * أستاذ بجامعة عين شمس .

تشكل مسألة الهوية العملية الأساسية في عمليات التنشئة الاجتماعية :

إن الأسرة والقبيلة، والمدرسة، والمسجد، والحزب، والتلفاز تعزف كلها على نفس اللحن المميز : خصوصيتنا واختلافنا عن الآخرين، لأن الهوية تعنى بالضرورة ماهو فينا وليس في الآخرين وتشدد نزعة الاحساس بالهوية، فردا وجماعة، في لحظات الشعور بالضعف أو التحدي ولذا تزداد سرعة ودرجة استدعاء الماهوي والمنغلق والمكتفى والموطن انها تعنى بالضرورة . في هذا الموقف - اغلاق الحدود واستدعاء الموروث التاريخي والنفع في عروق التمايز والانكفاء .

وربما جاءت مرحلة ما بعد الكولونيالية أو الإستعمار (بتعبير إدوارد سعيد) ، أو مرحلة الإستقلال الوطني بتعبير الخطاب الوطني معينة في ألياتها ونتائجها بمسألة توصيف الهوية وتحديدتها والتأكيد في مفردات هذا الخطاب على الشخصية الوطنية

والمستحول (أفاق العصر ومستجداته وتحولاته) .

إنَّ أهمَّ المنطلقات الفكرية في عمل إدوارد سعيد المتقدم هو العلاقة بين مفهوم (التهجين) ومفهوم الهوية المتصلبة ، واللائتواء ، فسعيد مناھض شرس للهويات المتصلبة ، الانفصالية ، التي تصنف نفسها نقبضا للآخرين ، وتقييم الحواجز بينها وبين العالم ، وهو يعني كلَّ الهويات على اختلاف أنواعها عند المرأة ، أو الرجل ، أو الغربي ، أو العربي ، أو الإسلامي ، أو المسيحي ، أو اليهودي ، وهو يرى أنَّ مفهوم الهوية مفهوم سكوني فقير مصمت بحاجة إلى البحث عن الطاقات التي تخبر الثقافة منه ، يقول : (مبدأ الهوية) ، وهو مبدأ سكوني أساسا يشكل لباب الفكر الثقافي خلال العهد الامبريالي . إنَّ الفكرة الوحيدة التي لم يكذبها التغير اطلاقا ، عبر التبادلات التي بدأت بانتظام قسبل نصف ألف من الزمن بين الأوروبيين والآخرين هي أنَّ ثمة شيئا جوهريا هو (نحن) و (شيئا) هو (هم) وكل منهما مستقر تماما ، جلي . مبين لذاته وشاهد على ذاته ، يشكل حصين منيع ، وهو انقسام يعود تاريخيا إلى الفكر اليوناني عن البرابرة ، لكنَّ أيا كان من ابتكر هذا النوع من فكر (الهوية) فإنه مع حلول القرن التاسع عشر

الأخضر وعلى حرب على سبيل المثال) .

يعيد ادوارد سعيد مناقشة القضية مجددا إنَّ إدوارد سعيد في كتابه المهم (الثقافة والامبريالية) يستعيد المسألة ويستدعي عبارة الألمانى اريخ اورباخ المنفي إلى تركيا والمستعدة بدورها من هوغ سان فكتور في أوروبا القرن الثاني عشر (إنَّ الإنسان الذي يجد وطنه سهلا ناعما ليس سوى مبتدئ طري العود . والذي يعتبر أنَّ كلَّ أرض وطنه إنسان أصبح قويا ، وحده الإنسان الكامل ، من ينظر إلى العالم بأسره على أنه بلد أجنبي) . وقد استمدَّ العبارة من ادوارد سعيد بدوره البلغاري الفرنسى زفتان تودوروف مؤلف (غزو أمريكا) 1972 . ما بين انديا حالهوية وانجراقتها في محيط

العولمة ، بقسوتها وتفكيكها لكل مغاير وكل ما هو جنوبي وما هو إنسانى وبين تفتتس الهوية خلف عشرات الخطوط الدفاعية الدينية أو التاريخية أو الاثنية أو الجغرافية . تؤمن أنَّ هويتنا ليست كيتونة جاهزة مكتملة بل هي صيرورة متصلة ومشروع مفتوح دائما على المستقبل ، تتجدد الهوية وتخصب في إطار التفاعل الجدلي الخلاق مع معطيات التاريخ والجغرافيا والموضوع ، وتشكل الهوية في كلِّ فترة في إطار جدلية الثابت (المميز ، والسكون ، والجوهري للجماعة الإنسانية)

التي يقوم بها المفكر العربي الفلسطيني الكبير ، بديلا للهويات الانعزالية ، المغلقة ، والمتوهمة على حد زعمه يؤسس ادوارد سعيد روح الهيام بالإنسان ، والترحال ، والإندماج ، في العالم بلا قيود ، وحيث يتحرر الانسان من التشبث بنقطة ثابتة ، وانتماء واحد متحجر وتاريخ مكتمل التصور ليندغم في لانهجانية الثقافات والمجتمعات ويتلمس تبرعم الطاقات والقوى الجديدة التي تعد بثقافات مغايرة ، وروح أعظم نراه في نزوعها الانساني وهو يحمل الامبريالية مسؤولية نشر الاعتقاد الواهي بين الناس بأنهم بيض ، أو سود ، أو غربيون ، أو شرقيون ، فالبشر كما يصنعون تاريخهم الخاص فانهم يصيغون أيضا ثقافتهم وهوياتهم .

إنه أكثر إنسانية أن نفكر بالآخرين أكثر من التفكير بأنفسنا فقط ودون أن نحاول تصنيف الآخرين ، أو تكرار تميز ثقافتنا وبلادنا عن غيرها .

إنه يستعيد مجددا عبارة لآكيوت لا يجب أن نحرم من النعمات الأخرى التي تقطن الحديقة .

إن الهوية المغلقة تشكل خطرا معرفيا في نظر مفكر عربي آخر هو المفكر العربي اللبناني علي حرب ، وهو ينادي بوضع علاقة العرب بهويته موضع السؤال ، وأن يدخل في

كان قد أصبح العلامة المميزة للثقافة الامبريالية إضافة إلى تلك الثقافات التي كانت تسعى إلى مقاومة الهجمات العدوانية الأوروبية عليها .

ويعد ادوارد سعيد مسألة الانشغال بالثراث كفضاء للهوية . تسبب انضابا للحوية وتحديث تجاوزات تحجي . على حساب الدقة التاريخية .

ويستشهد سعيد بمقولة أخرى لبيتوفن يقول فيها : انه ينتمي إلى أهل جزر الهند الغربية بقدر ما ينتمي إلى الألمان ، الآن موسيقاه جزء من الموروث الانساني .

ويربط ادوارد سعيد بين الانشغال بالهوية وعلاقتها بمصالح وبرامج فئات عديدة .

يستبعد سعيد نقاء الثقافات ، قالهويات

تخترع مسببة التنافر والنزاع والصراعات بين الإنسان والإنسان والمجتمع والثقافة سواء طرحت في الغرب أو الشرق ، الشمال أو الجنوب أن جميع الثقافات عنده مشتبكة مع غيرها وليست هناك ثقافة منفردة ونقية بل كلها مهجنة مولدة ، مختلطة ، وغير أحادية البعد ، وهو يحمل التعليم هذه المسؤولية ويحمل مسؤولية إعلاء هوياتنا على هوياتنا على هويات الآخرين ودون احترامها وهو ما يحتاج إلى تحليل ونقد جذريين .

ما البديل إذن لمسألة الهوية ، ونفيها

الركام الايديولوجي الذي يطمس الرؤية ويختم على العقل .

ويدين علي حرب مفكرين كبارا من وزن زكي نجيب محمود وحسن حنفي بسبب انشغالهم بالهوية ، أو بالانشغال بانتاج فلسفة إنسانية ، فزكي محمود قدم سؤال الهوية والقومية على أسئلة الحقيقة والواقع بالانشغاله بالجمع بين العروبة والمعاصرة ، ليست المسألة أن نحمل المعاصرة على العروبة ، أو ننقل العروبة إلى العصر كما فعل زكي محمود ، وإنما المشكلة أن يخلق أحدها إمكانيات جديدة للتفكير تتيج إعادة فهم العالم وتغيره .

وهو بالمثل يستنكر تقسيم العلم إلى شرقي وغربي كما فعل حسن حنفي في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب) والذي يقسم العلوم إلى قسمين : علوم الآنا وعلوم الغير . هو موقف شبيه بموقف المستشرقين ولكن بصورة معكوسة . والعلم الذي يكون هدفه تحجيم الغير لمعرفة العالم لا يتحول إلى علم حقيقي .

إن دعوة علي حرب للمفكر ليست للتخلي عن معتقده وإنما إلى الاشتغال على ذاته وممارسة هويته بطريقة منتجة بناءة ، خلاقة وهذا هو الرهان الحقيقي : أن يغير التفكير على نحو يؤدي إلى تغيير علاقتنا

صراع مع ذاته لكي يتحرر من الصور الوطنية التي تحجبه وتضلله .

إن المهمة المطلوبة أمام المفكر العربي أن يعيد تشكيل هويته على نحو يجعلها أكثر قدرة على الخلق والانتاج أو المساهمة في عملية التبادل الحضاري بدلا من أن ينشغل بهويته والتي تربكه بما تصدره من أطياف وغاذج .

والتراث عنده لا يطلب لذاته بل لامكانه فانشغال المفكر بالتراث كموضوع للدرس أو كأرسمال يصلح للصرف والتحويل ، أو كهوية ينبغي تفكيكها هدفه إعادة ترتيب العلاقة بها على نحو أجدى وأفضل .

إن الانشغال بالهوية عند علي حرب يحجب الرؤية ، ويصادر على المطلوب ، ويحبس الامكانيات ، في حين أن المطلوب المفكر بشكل عام أن يفكر ضد كل ما يعيقه عن الفهم والمعرفة . نكسر القوالب المعرفية الجامدة أو تفكيك الأجهزة المفهومية العاجزة ، أو نتجاوز الثنائيات العقلية الحادعة أو التخلي عن الطرائق الفكرية البالية وأن الانشغال بالهوية يرسى التقليد ، سواء تقليد الماضي أو الآخر بالحاضر ، وفي المقابل فإن الموقف الايجابي المطلوب منه هو الانشغال على الهوية والانتسما والتراث والأصول تصفية واختزالا وتفكيكا ، من أجل إزالة

ولذا يمكن اعتبار أن هوية الشعب وجوده بالفعل في خلال تفاعلها مع الواقع بوحدة الجماعة التي تفرزها وتنتسب إليها .
وفي حقب الضعف والتدهور تنزوي الهوية إلى وجود بالقوة أو بإمكان غير متحقق وهو ما يعني أن الهوية تعرف الانقطاع والتواصل وبغالبها الانقطاع في مواقف الضعف وربما اقترب المؤرخ الكبير ارنولد توينبي من هذه العلاقة عنده . لطرح نظرية التحدي والاستجابة ليصف به ازهار وانكفاء الحضارات وفي حالة الاستجابة الناجحة على يد النخبة الخلاقة تتجدد الهوية تمارس فعاليتها وتتخلى عن تعطلها واهبة الجماعة كينونتها وانتعاشها ويحدث العكس عندما تعجز النخبة عن استهلاك الاستجابة المناسبة التحدي وهوما يمكن أن نستنبطه من نظرية توينبي دون أن يعلن ذلك بلغة صريحة بل ضمنية .

بالوجود والحقيقة والخروج من قوقعتنا الفكرية .

الرهان هوفتج مسارات جديدة وإخراج إمكانات جديدة تزيد من معرفتنا وقوتنا في حضورنا في العالم .

إن الإبداع صنو التحرر من الهوية عند علي حرب فالإبداع هو السبيل لصناعة هوية فاعلة متجددة قادرة على مجابهة الأسئلة والتحديات بالمعالجات المبتكرة والمبادرات الخلاقة .

والإبداع هو سبيلنا لممارسة هويتنا بتفاعل نحو انساني عال . ذلك أن الهوية لا تتكون في السكون أو العدم بل تتكون في أتون الصراع، ولذا فبتجدد الصراع والتحديات يتجدد تكوينها على يد النخبة وفي هذا التكوين يتداخل القديم مع الجديد ، والثابت مع المتحول في صيغة ثقافية لأن الهوية صيغة ثقافية .

في الأعداد القادمة

مرثاة الشاعر الفجري شعر: صالح الظرابلسي
قهرموت شعر: محجوب العياري
خسارات شعر: أديب كمال الدين

الإشكاليات الكبرى لمسألة القضاء والقدر

في الفكر الإسلامي

بقلم : عبد الجليل المساوي

تمهيد :

النزوع إلى تبني فكرة الجبر في حين تمثل الملحمة ميلا إلى الأخذ بمبدأ التسليم بقدرة الإنسان وحرية في اختيار ما يفعل وما يترك بملء إرادته .

وليس يبعد عن هذه التجليات الأسطورية لفكرة الجبر والاختيار ما تضمنته ديانات الشرق القديمة من كونفوشيوس إلى بوذا إلى زاراشت ومانى . إذ لا تخلو ديانة من تلك الديانات من مضامين وتجليات تجسم المكانة المهمة التي

تحتلها فيها فكرة القضاء والقدر ، ثم جاءت الفلسفة اليونانية لتدفع بالمسألة نحو مزيد التجلي والظهور وترتقي بالفكرة نحو مزيد التبلور والوضوح ، فقد أصبحت المواجهة صريحة بين الجبر والاختيار وبالخصوص منذ عهد الفيلسوف أنيكساغوراس المتوفي سنة 426 ق م والذي يقوم مذهبه على القول: «إن الكون مؤلف من عدد لا نهاية له من الذرات يحركها ويسهر على تنظيمها عقل رشيد حكيم» . وأنه لقول يحمل في ثناياه قدرا قليل من النزوع إلى الأخذ بفكرة الجبر وأن الإنسان

قد لا يكون من السهل على الباحث المتعمق التسليم بأن فكرة القضاء والقدر هي وليدة العقيدة الإسلامية أو أنها من الخصوصيات التي تفردت بها الثقافة العربية الإسلامية ، ذلك أن الكثير من المعطيات توحى بأن التعامل مع فكرة القضاء والقدر قديم قدم الإنسان نفسه . وقد كان يتم في شكل مواقف عملية وممارسات تطبيقية مما يجعل المسألة حاضرة في حياة الإنسان منذ القدم بمضمونها لا بخطابها ومصطلحاتها . وقد عبرت عن نفسها لدى الإنسان البدائي في شكل أساطير تنسب الأحداث والظواهر للألهة أو للقوى الخارقة للعادة ، محاولة من هذا الإنسان لتفسير ما يدهشه وما لم يدرك أسبابه من ظواهر الكون والطبيعة والنفس والمجتمع .

لذلك كانت الأساطير منذ أقدم العصور في مواجهة الملاحم التي تسجل فعاليات الإنسان وتجد قدرات الشعوب وبطولات الأبطال مما يمكن معه الاعتقاد بأن الأسطورة تمثل نوعا من

عبارة بالطبع تحمل الكثير من معاني الجبر وتبعاً لهذا المبدأ وضماناً لسلامة الإنسان وعلاقاته المدنية فإن طاعة القوانين فضيلة ولو كانت جائرة . ذلك أن سقراط يؤمن بأنه لا بدّ للإنسان من قوانين ثابتة تنظم العلاقات وتكرس الخير وتضمن استمراره بين الناس ، ومهما كان نوع هذه القوانين فإنها ذات أصول ثابتة يكشفها متى صفا عقله وأصبح صالحاً لأن تنعكس فيه الحقائق العلوية الأزلية الخالدة . وما نظرية العلة الغائية والمحرك الأول في الفلسفة الأرسطية ، وما نظرية الفيض والترتيب الهرمي للعقول العشرة وما ارتباط الكلّ بالعقل الأول أو العقل الفعال في الفلسفة الأفلاطونية البوذية والفلسفة الأفلاطونية ذات البعد الديني المسيحي ، إلا تجليات مختلفة لنظريات تتعلق بمعالجة فكرة القضاء والقدر والجبر والاختيار والعلاقة بين الإنسان والقوى الخفية المتحركة في مصيره سواء كانت قوى إلهية ذات مضامين دينية أو كانت قوى طبيعية تجسم الحتميات والقوانين التي تسير الكون وتتوجه الحياة بمقتضاها .

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول بأن أكبر إشكاليات مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي تتمثل في إصرار المفكرين المسلمين على معالجتها بمعزل عما كان لها من تجليات مماثلة في

محكوم بقوانين وحتميات لا خلاص له منها ، وهو نفس المتزع ونفس المعنى تقريباً للذين عبرت عنهما الفلسفة الواقعية حين قالت : «إنّ الكون منظم وفق قوانين محكمة دقيقة تسيّره ولا شيء فيه يخضع للصدفة وليس الإنسان إلا جزءاً من هذا الكون عليه أن ينضبط لقوانينه بمقاومة غرائزه والسيطرة على انفعالاته والتحكّم في عواطفه وإنّما يتمّ له ذلك بالاحتكام إلى عقله المرتبط بالعقل الكلي أو اللوغوس » . ومن ثمّ فليس للإنسان ما يبرّر مقاومته لما يحيط به ويكتنف حياته من ظواهر وأحداث على أساس أن الخضور لقوانين الطبيعة ونواميس الحياة هو وحده الكفيل بتحقيق السعادة الإنسانية . أمّا الفيلسوف سقراط المتوفى سنة 399 ق م فقد كان صراعه مع السفسطائيين مواجهة علنية حقيقية واضحة الملامح بين موقفين متناقضين من مسألة الجبر والاختيار ، فقد رأى السفسطائيون أن القوانين والعقائد الدينية والنظم والأفكار جميعها أوهام من صنع الإنسان فلا شيء منها ثابت ولا شيء مقدس ، وأنّه لا حرج ولا ضرر من مخالفتها ، بل الواجب مخالفتها وعدم الالتزام بها ، فليس من الصواب ولا من الكياسة أن يضحي الإنسان بحريته في سبيل أي شيء منها . بينما يرى سقراط أن الإنسان مدني بالطبع ولا شك أن

التصور لحقائق الأمور وإحكام ضبط كميات الأشياء وقيم الوجود من ذلك قوله تعالى :
« وماقدروا الله حق قدره » (الحج: 4) أي لم يتصوروا حقيقته دقيقا واعيا .

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (الفرقان: 2)
« والقمر قدرناه منازل... » (يس: 39)

وقد جاءت الآية الثامنة عشرة من سورة (المؤمنون) لتحمل لفظ القدر معنى المقدار والكمية المحددة في صراحة لا تقبل تأويلا ففيها يقول الله عز وجل : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض... » ذلك المعنى الذي تؤكد في منتهى الوضوح الآية السابعة والعشرون من سورة الشورى وفيها يقول الله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » .

أما الإشكال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو أن القضاء والقدر في اللغة والقرآن كليهما وردا دائما في شكل مصطلحين مستقل كل منهما بدلالته عن الآخر ، لم يجتمعا ولم يلتقيا في أي نص من النصوص الدينية . القرآن والسنة . ولا في أي نص من نصوص اللغة العربية القديمة بما يجعل عنوة مسألة الجبر والاختيار بهما موضع إشكال ومثار تساؤل . فكيف اجتمعا في مصطلح واحد مركب من الكلمتين : القضاء والقدر أو متى اجتمعا ؟ ولماذا اجتمعا ؟ وماهي الدلالة الفكرية لهذا

الشقاقات القديمة السابقة عن الإسلام والمعاصرة له .

إشكاليات المفهوم

القضاء مصدر مشتق من فعل قضى يقضي وهو من الألفاظ المشتركة يستعمل للدلالة على معاني مختلفة تتمحور جميعها حول معنى الحسم والإنهاء من ذلك مثلا قضى الوقت بمعنى أمضاه وقضى على الحيوان أو على العدو قتله ، وقضى في الأمر وبه حكم فيه وحسم أمره وقد استعمل القرآن كلمة قضى للدلالة على كل هذه المعاني تقريبا من ذلك قوله تعالى :

« فوكره موسى فقضى عليه... » (القصص: 15)

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (النساء: 60)

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » (الإسراء: 47)

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين » (الإسراء: 4)

فقد استعمل فعل قضى في هذه الآيات في معاني تراوحت بين الحكم والأمر والإرادة والقتل والإعلام ، وكان مضمون الحسم هو البعد المهيمن عليها جميعا .

أما لفظ القدر بفتح الدال فهو يعني تقنين الأمور وتقديرها وتحديد المقادير اللازمة لحدوث كل موجود وكل حدث أو ظاهرة كما يعني

التنفيذي لهذا الحكم بتفصيله تفصيلا تطبيقيا يخص كل موجود بالأحوال والأزمان والأماكن اللازمة لتجسيم وجوده وصيرورته . ومن هذا المنطلق أمكن للمتكلمين المسلمين أن يجمعوا بين الكلمتين في مصطلح واحد مركب منهما باعتبارهما وجهين لعملة واحدة ، وباعتبار أنه لا قدر بدون قضاء سابق ولا قضاء بدون قدر محكم على صعيد الواقع والوجود .

إشكاليات النشأة :

قد لا يكون من الصواب بأن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا فكرة الجبر ومضمون التسليم بالقضاء والقدر ، بقطع النظر عن نسبة الفعل أو التصرف إلى إله واحد وقوة ما وراثية أو إلى آلهة متعددة موجودة بينهم ، فالهم أن ما عرفه العصر الجاهلي من تقاليد وممارسات تتعلق بالقدر ، والطيرة ، وزجر الطير ، وضرب القداح ماهي في حقيقتها إلا ضروب من التجليات البدائية لفكرة الجبر ومبدأ التسليم نتائج محتومة ومفروضة من خارج الأسباب الطبيعية ومن وراء فعاليات الإنسان وقدراته . وذلك هو مضمون مسألة القدر التي احتلت فيما بعد مساحة واسعة من الفكر الإسلامي .

أما في صلب الإسلام فإن مسألة القدر لم تبرز بجلاء ولم تتطور ملامحها بوضوح ، ولم يقدح حولها شيء من الجدل الفكري أو العقدي ، ولم تكن موضع تساؤل طويلة عهد التنزيل بسبب جملة من العوامل منها :

المصطلح الجديد المركب ؟

ويزداد الإشكال تعقيدا في غياب اتفاق المتكلمين على تعريف واضح محدد ، وليس مستبعدا أن يكون إختلافهم وغياب التعريف الدقيق المحدد لديهم نتيجة طبيعة تعاملهم مع المسألة وكأنها من البديهيات والمسلمات المعلومة بالضرورة ، ومن ثم أنصرفوا إلى البحث في الإشكاليات العقدية المترتبة عنها دون اهتمام بتأصيل المصطلح أو بتدقيق التعريف وتحديد المضمون الدلالي لهذا المصطلح أو المصطلحات المستعملة للتعبير عن المعاني المتداولة لمعالجة القضايا المطروحة على قاعدة « تعريف الواضحات من الفاضحات » غير أنه باستقراء مختلف النصوص التي أنتجها المتكلمون الأوائل حول هذه المسألة نستطيع أن ندرك أنهم يعنون بالقضاء حكم الله تعالى الأزلي الكلي المجمل على أعيان مخلوقاته وإرادته ما سيكون عليه كل موجود وما سيؤول إليه من مصير ومآل حكما سابقا في علم الله منذ الأزل لا يتبدل ولا يتغير وفق إرادته القديمة المنزهة عن البداءة .

أما القدر فهو يتعلق بالأحوال التفصيلية والتغيرات الجزئية للأشياء والموجودات ويتقدير الحال التي سوف يكون عليها كل إنسان أو حيوان أو ظاهرة أو حدث في وقت معين محدود ومن ثم فإذا كان القضاء هو حكم الله الأزلي المطلق الشامل فإن القدر يمثل البعد

لهم بعض المفارقات والملابسات ، ومن ثم بدأت تطرح عليهم الإشكاليات العويصة المعقدة وفي مقدمتها إشكاليات الجبر والاختيار والقضاء والقدر ، تلك الإشكاليات التي لم تطرح أول الأمر على مستوى المناظرات الفكرية ، وإنما طرحت على مستوى المواقف والممارسات العملية . فبعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رفع معاوية بن أبي سفيان قميص عثمان على سنان رمحه مطالبا بالقصاص من قتلة الخليفة المظلوم ، وفي هذا الموقف العملي تجسيم واضح لاعتقاد معاوية وتمسكه بمبدأ حرية الإنسان واختياره لأنفعاله ، وقدرته على تنفيذ ما يختاره بإرادته ، ولذلك رأى وجوب القصاص من القاتلين وتحميل الفاعلين مسؤولية فعلهم الذي فعلوه عن قصد واختيار وإرادة حرة ، ولو لم يكن هذا اعتقاده ما كان بإمكانه أن يطالب بما طالب به من قصاص القاتلين .

وفي مقابل ذلك تمسك الخليفة الرابع علي بن أبي طالب برفض الاستجابة لطلب معاوية اعتبارا لملابسات سياسية بالدرجة الأولى ، ولكن رفضه ذلك لا يخلو من تمسك بضرورة التسليم بقضاء الله وقدره ، وهو لاشك مستند مهم بالنسبة إليه لتحاشي الوقوع في فخ القصاص الذي نصبه له معاوية .

ثم جاءت موقعة صفين لتنجلي عن ظهور فرقة الخوارج تيارا جديدا يكرس مواقف تجسم الاعتقاد بارادة الانسان واختياره ، ويدين

1 . اشتغال المؤمنين بالدين الجديد بتطبيق تعاليم الوحي المنزل إليهم ، يتوالى نزوله في كل حين وينتظرون الجديد منه في كل لحظة ، الأمر الذي جعل منهم أناسا عمليين لا مجال بينهم للترف الفكري والتنظير التجريدي .

2 . اقتناعهم الجازم وإيمانهم الراسخ بصدق ما جاءهم به نبيهم الصادق الأمين ، وقدرته على الإجابة عن كل سؤال وحل أي إشكال قد يعترضهم في أمور دينهم ودنياهم .

3 . وضوح معاني القرآن لديهم ، فقد أنزل الله هذا القرآن بلغتهم التي بها يتخاطبون ، ولمعالجة أوضاع واقع عقدي وأخلاقي واجتماعي يحبونه مباشرة لا يحتاجون لفهم معانيه إلى تأويل أو تفسير ، فاذا غمض عليهم شيء من أمور الدين أو الدنيا سألوا عنه النبي عليه السلام وهو المعصوم عن الخطأ الذي لا يراجع جوابه ، ولا يجوز العدول عن رأيه إلى رأي سواه .

فلما توفي الرسول وانقطع الوحي احتاج الناس إلى الاستنجاد بالعقل لفهم ما يطرأ عليهم من ملابسات تتعلق بشؤون الدين والعقيدة أو بشؤون الدنيا ، ولما كان العقل غير معصوم عن الخطأ فقد احتاج الناس إلى مراجعة مواقفهم وتقليب النظر في الحلول التي يقترحها للتأكد من سلامتها من المحاذير العقديّة والشرعيّة ، وبتقليب المواقف والأنظار على مختلف أوجهها المحتملة ، بدأت تظهر

العقيدة التي تعبر عنها بمنتهى الدقة الحكمة الشعبية «المكتوب على الجبين تراه العين».

وإنما الصحيح أن منطق الحياة ونواميس السياسة وقوانين الاجتماع تقتضي جميعها أن يتمسك الماسكون بزمام السلطة بعقيدة الجبر محافظة على ما بأيديهم من امتيازات ومكاسب ، وحرصا منهم على بقاء ماكان على ماكان عليه . وحتى يكون تصديهم لمعارضهم ليس مجرد دفاع عن ملكهم ومصالحهم وإنما هو دفاع عن شرع الله ، ومنع للفساد وذود عن سنة الكون والحياة . بينما يميل المعارضون دائما إلى القول بحرية الإنسان ، ويدعون بأنه مريد مختار لأفعاله ، قادر على إنجازها وتنفيذها بقدرته الذاتية التي هو مالکها ومتصرف فيها ، ويرفضون عقيدة الجبر حتى يكون لهم الحق في نقد الحكام وأصحاب السلطة وتحميلهم مسؤولية أعمالهم وأعمال أعوانهم وأتباعهم . ولهذا السبب تمسك معاوية بمبدأ حرية الإنسان واختياره وتحميله مسؤولية أعماله لما كانت السلطة بيد علي ، وليس هو إلا مجرد معارض له . ولنفس السبب وقف علي بن أبي طالب من مسألة القصاص من قتلة عثمان موقف المسلم بقضاء الله وقدره ، المعتقد بعقيدة الجبر والتسيير ، وإن لم يصرح بذلك . فلما آلت الدولة إلى بني أمية وأصبحوا أصحاب السلطة ، كما كان من الطبيعي أن يتحوكوا إلى القول بالجبر لتثبيت دعائم ملكهم والمحافظة على

بتحميل الفاعل مسؤولية أفعاله . ومن منطلق اعتقادهم بحرية الإنسان ومسؤوليته على أفعاله جاء تكفيرهم علي بن أبي طالب وقد قالوا له: «إن كنت دخلت فيما دخلت فيه وأنت تعلم أنك على حق ثم قبلت التحكيم وتنازلت عما علمته من الحق طالبا للأمن والسلام ، فقد كفرت بتخيلك عن الحق وأنت تعلمه . وإن كنت دخلت فيما دخلت فيه وأنت لا تدري هل أنت على حق أم لست كذلك ، فقد كفرت باثارتك فتنة أتت على الأخضر واليابس من أجل أمر تبين لك اليوم أنك لست على حق فيه... الخ» فهم يعتبرون علي بن أبي طالب قد انساق إلى ما انساق إليه بمحض إرادته واختياره ، ولايلمس الدارس من تفكيرهم المواقف والأحداث وتحليلهم النتائج المترتبة عنها نسبة شيء مما جرى ويجري بين المسلمين إلى قضاء الله وقدره . ومن منطلق نسبتهم الأفعال إلى إرادة فاعليها واختيارهم جاء تكفيرهم علي بن أبي طالب ، ومعاوية ، والحكمين ، وكل المسلمين الذين رضوا بالتحكيم سواء كانوا من شيعة علي أو من جماعة معاوية ، أو من أهل الروبة .

ومن هذا المنطلق يمكن رد الرأي السائد بين الباحثين في مسألة القضاء والقدر والقاتل بأن الدولة الأموية هي أولك من تبنى عقيدة الجبر والقول بأن الإنسان مجبر على فعل مايفعله محكوم بقضاء الله وقدره في جميع أمره ، تلك

مكاسبهم وامتيازاتهم .

هذه إحدى إشكاليات نشأة المسألة وهي إشكالية تستدعي معالجتها إعادة جذرية وواسعة لقراءة تاريخ الفكر الإسلامي بوجهات نظر تختلف عن وجهات النظر المذهبية التي قرئ بها سابقا ، والتي ما تزال لها آثارها وامتداداتها وتأثيرها في تفكيرنا إلى اليوم .

أمّا الإشكالية الثانية فهي تتعلق بالكيفية التي تحوكت بها المسألة إلى أصل من أصول العقيدة ، فقد كان إجماع المسلمين حاصلا على إدانة الفتنة واعتبارها شرا أصيبت به الأمة الإسلامية الناشئة يومذاك ، وعلى أنها كبيرة من كبائر الإثم ، وإن اختلفوا في مواقفهم

من الداخلين فيها ، مابين من حملهم مسؤوليات أعمالهم فيها ، وبين من براها قضاء من الله وقدر مقدورا لا بد منه ولا راد له . فقد قال بعض المسلمين بخطأ واحد من الفريقين المتقاتلين لا بعينه ، وقال الخوارج بخطأ كل من الفريقين علي وأصحابه ، ومعاوية وأصحابه . وقال الشيعة بخطأ الخوارج وخطأ معاوية وأصحابه ، وقال أصحاب معاوية بخطأ علي للرفضه القصاص من قتلة عثمان . وواضح جدا أنه أينما يكون هناك حكم بالتخطئة فهناك قول بالاختيار وتحصيل الفاعل مسؤولية فعله ولكن هذه المواقف المتعارضة لم يترتب عنها من الإشكاليات ما يكفي لإثارة الجدل حول المسألة وتحويلها إلى قضية فكرية وعقدية لها ما لها

من الحدة والتشعب والتعقيد حتى كان قول الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة واعتبارهم الفتنة الناشئة بين المسلمين بسبب مقتل الخليفة الثالث كبيرة من الكبائر كفروا بها كل من تسبب فيها ومن انغمس في أحداثها ، وكل من قبل النتائج التي أفضت إليها ، فكفروا بذلك كل المسلمين من الصحابة والتابعين والفقهاء والصالحين وعامة المسلمين ، فنهض علماء الأمة يناقشون المسألة ويردون التهمة فاحتمد الجدل بينهم حول الإجابة عن السؤال الجوهرى لهذه القضية : هل أن الإنسان مخير يفعل ما يشاء باختياره وإرادته الحرة ، أم هو مسير لا إرادة له ولا خيار في شيء من أمره ولا في مصيره كله ؟

ولقد مال إلى القول بالجبر كثرة من المسلمين من ذوي التقوى والنوايا الحسنة حرصا على تبرئة الصحابة والتابعين وصالحى الأمة وعامة المسلمين من تهمة التكفير ، خصوصا وأنهم يرون مثل غيرهم من المسلمين أن الفتنة من أكبر الكبائر في حكم الشريعة والدين ، وفيها قال تعالى :

« والفتنة أشد من القتل » (البقرة 191)

« والفتنة أكبر من القتل » (البقرة 215)

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » (الأنفال : 25) ...

وما ورد ذكر الفتنة في القرآن إلا في سياق

الشجب والاستنكار والوعيد ، فكان القول بالجبر والتسليم بالقضاء والقدر مخرجا لايد منه ولامعيد عن اللجوء إليه لتبرئة الصحابة الذين انغمسوا في الفتنة من وصمة التأييم والتكفير التي ابتدعتها الخوارج ، وتبنت الدولة هذا التوجه فأصبح مذهباً رسمياً مفروضاً التزامه على الجميع . لكن هذا المخرج أفضى بفئة من أهل الإيمان والتقوى إلى التفتن إلى وجود مزلق أخطر عقدياً من تأييم الصحابة أو حتى تكفيرهم ، ألا وهو ما يتضمنه القول بالجبر والتسليم بأن أفعال العباد قضاء وقدر من الله تعالى مكتوب عليهم منذ الأزل من نسبة الظلم والشر والفساد إلى الله تعالى ، فارتاعوا لهول ما قد نسبوا إلى الله بما يترتب عن هذا الفهم للقضاء والقدر من نقائص على غاية من الإفضاعة ، ومن ثم مالوا إلى القول بحرية الإنسان واختياره أفعاله بملء إرادته وإنجازها وتنفيذها بقدرته واستطاعته ، وبذلك تحولت المسألة من مجرد دفاع عن الصحابة وصلحاء المسلمين إلى الدفاع عن الله تعالى ، ومن مجرد معالجة نقدية لعلاقة الإنسان بالواقع إلى معالجة عقدية لتحديد علاقة الإنسان بالله ، فخرجت القضية من صبغتها الفكرية النقدية لتصبح من المسائل الحساسة التي تمس صميم العقيدة وجوهر الإيمان ، فأخذ النظر فيها شكل المواجهة التي يرى كل واحد من الأطراف المتقابلة فيها أنه لا يحل له التساهل في شيء .

منها أو التنازل عن موقف من مواقفه فيها . ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي هي واحدة من القضايا المركزية الشائكة ذات الإشكاليات العسيرة المعقدة ، أفرزتها أحداث الفتنة الكبرى في جملة ما أفرزت من المواقف العقدية والتحولات الفكرية ، وقد انقسم المسلمون أول الأمر حيالها إلى تيارين رئيسيين :

1 - مذهب الأخذ بمبدأ الجبر والتسيير ، والتسليم بالقضاء والقدر ، وهو مذهب سواد الأمة وعامة المسلمين ومن ورائهم ولآة أمورهم وعامة علمائهم وكيفما يكون الناس يول عليهم ، وقد تراوحت مواقفهم ما بين التطرف والاعتدال . فكان منهم غلاة لا يثبتون للإنسان فعلاً ، ولا قدرة على الفعل ، فهو لا يستطيع فعلاً ولا تركاً ، وأن ما ينسب إليه من أفعال وإمساكات إنما هي نسبة من قبل المجاز ، إذ هو مثل الريشة في مهب الرياح ، نقول إنها تتحرك وتعلو وتسفل وتسرع وتتباطأ ، وهي في الحقيقة لا سلطان لها على نفسها وعلى كل فعل منسوب إليها إنما للريح وليس لها ، وكذلك الإنسان في خضم تقلبات الأقدار المكتوبة عليه منذ الأزل .

ومتهم معتدلون ينسبون له ما يليق بمقام الإلهية وسلطان الربوبية ، ولكنهم لا ينكرون أن للإنسان قدرة يخلقها الله فيه عند الفعل ،

الإنسان أفعالا من مقدراته ومما هو في استطاعته ويعزم عليها عزم تصميم لا تردّد فيه ولا تراجع وتتوفر له الوسائل والالات اللازمة ولكنها تمتنع عنه لأسباب خارجة عن نطاقه ، فلا يجد الناس تفسيراً لذلك يومذاك إلا في عقيدة الجبر وأن الله هو الفاعل الحقيقي وليس الإنسان .

هـ - إجبارية العلم والمعرفة فقد رأى الناس بالتجربة أيضا أن لا قدرة للإنسان على إغلاق ذهنه وعقله أو منع حواسه من تلقي معلومات ومعارف وإحساسات لم يخترها ولم يقصدها ولا هو يريدّها أو يرغب فيها وإنما تفرض عليه فيتقبلها مرغما مجبورا .

و قد تطوّرت هذه العوامل والدوافع وتنوّعت غير العصور بتأثير الجدل والمواجهات الفكرية وتأثير الوافد من الثقافات الأخرى التي اقتحمت على المسلمين ديارهم بسبب المشاققات الناجمة عن الاختلاط بالأُمم والشعوب الأخرى سواء من اعتنق منهم الإسلام أو من بقي منهم على دينه من أهل الذمة والمستأمنين .

2 - مذهب القائلين بأن الإنسان ليس مجبورا ولا مسيرا ، والذين يشبّتون له قدرة واستطاعة يفعل بهما ما يريد ويختاره من الأفعال ، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب متباينة في تحديد مفهوم القدرة والاستطاعة ، فرأها بعضهم في سلامة الجوارح وصحة البدن وغياب الموانع من الفعل ، ورأى آخرون أن الاستطاعة قسمان : قسم

بدونها لا يستطيع أن يفعل شيئا ، ومن ثم فقد أثبتوا للإنسان قدرة غير مؤثرة بذاتها وإنما هي مؤثرة بقدرة الله انسياقا مع منطق الآية : « **ما شاء الله ولا قوة إلا بالله** » أما دوافع القول بالإجبار والتسليم بالقضاء والقدر فقد تدرجت في تنوعها وتعدّدها على النحو التالي :

أ - موقف أخلاقي صرف غايته تهيئة الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين وعامة المسلمين من تهمة الكفر التي رماهم بها المتمسكون بمبدأ التكفير بارتكاب الكبيرة ، ومن تهمة التفسيق والتضليل ، التي رماهم بها فيما بعد القائلون بالمنزلة بين المنزلتين . وقد استمرّ هذا الدافع هو الموجه الرئيسي للمذهب إلى نهاية القرن الأول من الهجرة تقريبا .

ب - التسليم بظواهر بعض النصوص القرآنية المكرسة للجبر والوقوف عندها باعتبارها محكمة وغير قابلة للتأويل ، ولا اجتهاد ولا مجال لإعمال العقل فيما ورد فيه نصّ محكم صريح ، من ذلك قوله تعالى :

« **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله** »

« **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم خيرة** » (القصص: 67)

« **يضل من يشاء ويهدي من يشاء** » (النحل: 93)

ج - التأدب مع الله والتأثّم بإشراك غيره في صفة من صفاته أو اسم من أسمائه الحسنى .

د - التجربة والملاحظة حيث جرت العادة أن يريد

بالاختيار والإرادة الحرة ومالت إلى تحميل الإنسان مسؤولية أفعاله سعياً من أصحابها إلى سد باب الفتنة والاختلاف ، ورغبة في زجر الناس عن الكبائر والموبقات .

هـ - توارد الأدلة ، فقد استخدم علماء الكلام أدلة وحججاً لدعم أصولهم الاعتقادية فأفضى بهم احتكاك هذه الأدلة بما يعارضها إلى تناول مواضيع أقرب إلى الطبيعة ، وأخرى ألصق بعلم النفس مثل البحث في الإستطاعة ، هل هي قبل الفعل أم هي مع الفعل ، وهل يجوز أن تكون الاستطاعة بعد الفعل ، فكان لهم من ذلك مدعاة لتعميق مباحث القضاء والقدر وإثرائها .

و - دخول تيارات فكرية وخلفيات ثقافية واردة عن طريق الذين دخلوا الإسلام يحملون معهم بقايا معتقداتهم وليس لهم من اللغة ما يسمح لهم بالتعامل المباشر مع نصوص القرآن وفهمها فأفضى بهم ذلك إلى إثارة تساؤلات وإشكلات كان حظ مسألة القضاء والقدر منها عظيماً ، وكان لابد من اعتماد العقل لمجادلتهم وإفهامهم ، والعقل أميل إلى تبني مبدأ الحرية والإرادة ، وقدرة الإنسان على فعله .

وقد اشتهر بين المؤرخين لهذه المسألة أن أول من عرف عنه القول بأن العبد مخير وتحويل مسألة القضاء والقدر إلى موضوع للجدل الفكري هو معبد الجهنّي المتوفى سنة (80هـ/699 م) فقد نشأت حوله جماعة من

حاصل قبل الفعل وهو سلامة الجوارح وغياب الموانع ، وقسم ثان لا يكون إلا مع الفعل ، وهو أن يخلق الله هذا الفعل في الفاعل . وبالقسمين معا يكون الفعل وليس بواحد منهما ، وآخرون ذهبوا في ذلك إلى مزيد من التفاصيل .

وللقول بحرية الإنسان وقدرته وإرادته الذاتية المستقلة أو التابعة لقدرة الله منطلقات ودوافع منها :

أ - الحذر من التورط في وصف الله بالظلم والجور لأنه إذا استوى المطيع والعاصي في الخضوع لقضاء الله وقدره بالمفهوم الجبري واختلفا في الجزاء ثواباً وعقاباً ، كان ذلك ظلماً يجب تنزيه الله عنه .

ب - التعامل مع نصوص قرآنية محكمة تصرح بأن للإنسان قدرة واستطاعة مثل قوله تعالى :

«وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين»
«ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً»

«فاتقوا الله ما استطعتم»
«وما لا يحملنا ما لا طاقة لنا به»

ج - هناك فئة تبنت موقف الاعتراف للإنسان بقدر من الحرية والاختيار والإرادة الذاتية من منطلق الرغبة في معارضة الحكام ، وتحميلهم مسؤولية النتائج المترتبة عن حكمهم وتصرفات أعوانهم وأتباعهم .

د - فئة من اللأثقياء والزهاد ذهبت مذهب القول

انفصال وأصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن
معهما واعتزالهم حلقة الحسن البصري .

بواعث الاختلاف:

كانت المواجهة بين هذين التيارين خفية
تختبئ وراء المواقف العملية وتطرح نفسها
ضمن قضايا ومسائل أخرى وكانت التوجهات
العقدية والفكرية باهتة الملامح ، حتى كان
تقتيل المخالفين للمذهب الرسمي بتهمة الزندقة ،
وحتى تزايدت حدة التبذير والتضليل والتفسيق
والتكفير فكان على كل مجادل أن يبحث له في
القرآن عما يستند موقفه ويبعد عنه تهمة الكفر
والزندقة ، وقد وجد كل من الفريقين ضالته
فبذت نصوص القرآن وكأنها متعارضة ، فيها
ما يصرح بالجبر وفيها ما يصرح بالاختيار ،
وتمسك كل مذهب بأن ما يؤيدهم من هذه
النصوص القرآنية محكم ، وأن ما يعارض
موقفهم متشابه ينبغي تأويله .

هكذا نجد نصوص القرآن والسنة تعج
بآيات وأحاديث تكرر عقيدة الاختيار وحرية
إرادة الإنسان وقدرته على أفعاله ، من ذلك
قول الله تعالى :

«إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ
فَعَلَيْهَا» (الإسراء: 7)

«فَمَنْ شَاءَ فَلْيُضْلِمْ وَمَنْ شَاءَ
فَلْيُكْفِرْ» (الكهف: 29)

«إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ لِمَنْ شَاءَ وَكَرَاهُوا
كُفْرًا» (الإنسان: 3)

يدينون برأيه ويقولون بحرية الإنسان وقدرته
على أفعاله ، ثم تدعمت مواقفهم وأنظاره بواحد
من بلغاء الكتاب والمناظرين هو غيلان
الدمشقي المتوفي سنة 105هـ / 723م ،
ولا يهولنكم ما يروج حول الرجلين من تهمة
الزندقة ، فهي تهمة كان لابد منها لتصفية
المعارضين السياسيين والمخالفين للتوجهات
الإيديولوجية الرسمية ، وكفيينا دحضا لهذه
التهمة عنهما التذكير بالعلاقة الوطيدة بين
معبود ومعاوية بن يزيد المتوفي سنة (64هـ
/ 684م) الرجل الصالح الذي ورث الخلافة عن
أبيه وتخلّى عنها بعد ثلاثة أشهر من تسلمها
هذا فيها ، وانصرفا عما يطلبه الناس من جاه
وسلطان ومال . وما كان بين غيلان والخليفة
الصالح عمر بن عبد العزيز المتوفي سنة 101هـ
ومن ثم فليس من الحق ولا من الإنصاف
ربط القول بحرية الإنسان بالإلحاد والزندقة كما
يريد إشاعة ذلك خصوم هذا التوجه العقدي
والفكري تنفير العامة ، فما كان بالإمكان
إقناع العامة بالدليل والحجة لعدم قدرتهم على
استيعاب مثل هذه المسائل ، ولم يكن هناك بد
من الاعتماد على التنفير الوجداني القائم على
تفسيق الخصوم وتضليلهم وكل التهم لهم
، وحتى تكفيرهم من خلال رميهم بالزندقة
والإلحاد في الدين حتى تنفر العامة منهم
وترفض الإصغاء إلى أقوالهم . وقد تبلور هذا
التوجه واتضحت ملامحه بظهور المعتزلة بعد

فيه ، ولا إرادة له ولا حرية في ما يجري عليه أو يجري له.

وهكذا يمكن تصنيف بواعث الاختلاف بين المتكلمين في مسألة القضاء والقدر على النحو التالي:

1 - تعارض النصوص القرآنية والنبوية المتعلقة بالمسألة وحاجتها إلى التأويل ، إذ ليس بعضها بأولي بالتأويل من البعض الآخر .

2 - اقتطاع الآيات القرآنية من سياقها : فقد كرس التعارض وعمق الاختلاف بين آيات القرآن وزاد الطين بلة والقضية إشكالا ، اقتطاع بعض النصوص القرآنية من سياقها ، وتجزئة بعضها الآخر والاكتفاء منها بما يصلح لدعم

الموقف كما هو الحال في استشهاد القائلين بالجبر ، والقائلين بالكسب جميعهم بقوله تعالى: «هل من خالق غير الله» للتدليل به على

أن الله خالق أفعال العباد وليس هناك خالق لها سواء ، والحال أننا لو استكملنا الجملة القرآنية

لوجدناها لا علاقة لها بالموضوع أصلا ، ذلك أن نص الآية كاملة: «هل من خالق غير الله يرزقكم» ، فالنفي من غير الله ليس صفة الخلق

وإنما صفة الرزق ، ومعنى الآية أن الخالق الرازق واحد لا شريك له في اجتماع الصفتين فيه وهو الله تعالى ، وأما مطلق الخلق المجرد عن القدرة على الرزق ، فليس هو موضوع الآية ولا يتعلق به نفي ولا إثبات .

3 - إشكال الحجج العقلية : ذلك أنه ما حاول

«ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» (الشورى: 30)

«لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» (البقرة: 286)

«أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم» (آل عمران: 165)

كذلك الحديث النبوي «يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه...»

وفي مقابل ذلك نجد آيات أخرى كثيرة وأحاديث نبوية تصرح بالجبر وتنفي عن الإنسان أي قدر من الحرية والاختيار وأي دور له في ما يجري عليه أو على يديه من أفعال وأحداث من ذلك قوله تعالى :

«وما تشاؤون إلا أن يشاء الله» (التكوير: 29)

«وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله» (آل عمران: 166)

«ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها» (الحديد: 22)

وكذلك جاء في الحديث القدسي من قوله عليه السلام في ما يرويه عن ربه عز وجل : «خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، وخلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون» وقوله أيضا «كل ميسر لما خلق له» ، وهما حديثان يصرحان بالجبر الذي لا خيار للإنسان

على فعل ولا ترك ، وسما تلك الختميات قضا .
وقدرا وحملوا عليها ماليس محتوما على
فاعله ، بينما ميّز أهل الاختيار بين الأفعال
الاضطرابية والاختيارية .

5 . اختلاف النظر إلى العوامل المؤثرة في
الفعل ، تلك العوامل التي يمكن تقسيمها إلى
أصناف ثلاثة :

أ . عوامل نعلمها ونتحكم فيها وهي جملة
الشروط والآلات الواجب توفيرها لإحداث الفعل
مثل القلم والورق والمداد لإحداث الكتابة ،
ومثل المواد والآلات اللازمة لإحداث البناء .

ب . عوامل نعلمها ولا نتحكم فيها ، مثل صحة
البدن وسلامة الجوارح وحدوث الميل النفسي إلى
إحداث الفعل والرغبة فيه .

ج . عوامل لا نعلمها ولا نستطيع التحكم فيها
مثل الصدق الطارئة بما تتبجح من عوامل
مساعدة لم يكن الفاعل ينتظرها وليس بإمكانه
أن يوفرها لو علمها وفكر فيها . أو بما تضعه
في طريقه من عوائق لم تكن في حسابه ، وليس
فسي مقدوره دفعها أو تحاشي الوقوع فيها .
ومن ثم فمن أسباب الاختلاف بين المتكلمين في
مسألة القضاء والقدر هو التركيز على نوع من
العوامل وإهمال ما سواها ، فالقائلون بالجبر
ركزوا على جملة العوامل التي لا قدرة للإنسان
على التحكم فيها ، ولذلك رأوه مجبرا ،
وهؤلاء هم القائلون بأن الاستطاعة قسما منها
ما هو قبل الفعل ومنها ما يحدث عند الفعل ومن

العقل حل المسألة على وجه من الوجوه إلا
أفضى به الحل إلى إشكال عقدي خطير أو جملة
من الإشكاليات المعقدة . فالقول بالجبر وأن الله
هو الذي خلق الكفر في الكافر والإيمان في
المؤمن وهو فاعل الخير والطاعة في المطيع
وفاعل الشر والمعصية في العاصي يفضي إلى
نفي مبررات الثواب والعقاب ويجعل التمييز
بين العباد في نوع الجزاء ضربا من الظلم يتنزه
الله عنه .

وفي المقابل فان القول بأن للإنسان إرادته
المستقلة واختياره الحر ، وأن له قدرة ذاتية
سابقة عن الفعل ، سوف يفضي بأصحابه إلى
شبهة تجريد الله من أخص خصوصيات صفة
الربوبية . إذ يبدو الأمر وكأن الأفعال
والتصرفات تجري في ملكه دون مشيئته سواء
كان ذلك بمعنى لا مبالاة منه ، أو بمعنى أنها
تحدث رغما عنه ، ذلك المحذور الذي يلوره
وعنق النفور منه دخول بعض مقولات الفلسفة
اليونانية إلى الثقافة العربية الإسلامية وعلى
الخصوص مقولة : إن الله أو العقل الكلي يعلم
الكليات ولا يهتم بالجزئيات ... إلخ

4 . الخلط بين الختميات الطبيعية ومسألة
القضاء والقدر ، فقد قامت العقيدة الأشعرية
على أن ليس للطبيعة فعل ولا منع من الفعل
وإنما ذلك لله ومن ثم اختلطت الأمور فأصبحت
الختميات الطبيعية تستخدم كأدلة على الجب ،
وأصبح الإنسان في نظرهم مجبورا لا سلطان له

أربعة تيارات تولد بعضها من بعض فقد أفضى التمهيد الحاد بين الجبرية والمعتزلة إلى ظهور تيار ثالث هو تيار المذهب الأشعري القائل بالكسب ، هذا الكسب الذي لئن لم يستعد كثيرا عن نظرية الحبر فانه جسم شيئا من الوعي لا يخلو من ضبابية وغموض بأن هناك عوامل مباشرة وأخرى غير مباشرة مفروضة على الإنسان لاسلطان له عليها ، وهي توجه سلوك الأفراد فتجعلهم مجبورين في حرية أو أحرارا مقيدين إذ هي في حقيقة أمرها عوامل حاسمة في توجيه سلوك الإنسان وتحديد حريته ومجالات اختياره ، تلك العوامل التي لم يوفق الأشاعرة الأوائل في الإفصاح عنها حتى فصلها ابن رشد حينما قال بأن الإرادة ماهي في الحقيقة إلا شوق تولد في الإنسان المؤثرات الخارجية وهي تتحقق بالتوافق والانسجام بين التوازع والميول الداخلية في الإنسان وبين العلل والمؤثرات الخارجية .

وقد استطاعت الفلسفة الوجودية في العصر الحديث التعبير بدقة عما اعتلج في نفس أبي الحسن الأشعري ، والتمتع في خاطره ولم يوفق إلى تفصيله والتعبير عنه بجلاء ، وذلك حين قالت هذه الفلسفة الوجودية بنظرية الجدران الأربعة ، ومعناها أن الإنسان حر في إطار جدران أربعة لا يستطيع الخروج عنها أو تجاوز الحدود التي تفرضها عليه فهو بينها حر مقيد ، أو حر في أفعال وتصرفات مفروضة عليه

اختصاص الله وحده . وأما القائلون بقدرة الإنسان وحريته فقد ركزوا على العوامل المعلومة سواء منها ماهو في مقدور الإنسان أن يتحكم فيها أو مالمس في مقدوره ، وقالوا بأن الاستطاعة هي سلامة الجوارح وتوفر الوسائل وانتفاء الموانع وجزموا بأن الاستطاعة قبل الفعل ، وإنها استطاعة للفعل ولتركه على السواء .

ومن منطلق التعامل مع هذه الأصناف من العوامل وعلى أساس التركيز على بعضها دون الوعي ببعض الآخر أو الانتباه إليها جميعها تطورت مسألة القضاء والقدر على مرّ الأيام ، لتمرّ بمراحل ثلاث هي :

أ . مرحلة الممارسة التلقائية المتمثلة في المواقف العملية المجردة عن الوعي بما تحمله المسألة من إشكاليات عقدية وفكرية .

ب . مرحلة الوصف المعبر عن الوعي بأبعاد القضية بصورة إجمالية حيث أصبح للجبرية مواقف وأفكار هم قادرون على شرحها والتعبير عنها وتبليغها لغيرهم ومناقشة خصومهم فيها ، وأصبح لأهل الاختيار مثل ذلك .

ج . مرحلة التحليل والتفتين والتنظير حيث أصبح لكل مذهب تقنياته الكلامية وأدلتها وحججه المقتنة التي يعتمد عليها في الجدل والمناظرة وإقامة البراهين على سلامة أنظاره ودحض حجج خصومه .

وقد أسفرت هذه المراحل الثلاث على ظهور

ومعلوم أن الأبوين يورثان الابن من الخصائص النفسية والبدنية ومن الطباع والانفعالات ، والمشاعر والوجدانات، ومن السلوك والتصرفات ما لن يكون لو كان من غيرهما . أو حتى لو كان من أحدهما مع غير الثاني .

4- الجنس : وغني عن البرهنة أن لا أحد من البشر قد اختار أن يكون ذكراً أو أنثى ، وغني عن البيان وعن إقامة البرهان أن لجنس الإنسان تأثيراً ما على ما فيه من بعض الميول وبعض الاستعدادات والميول الجنسية التي تدفعه إلى اختيار أفعال وممارسات لو كان من الجنس الآخر .

وعلى العموم فإن ملكات الإنسان ومختلف قدراته ومواهبه وشتى طموحاته وتطلعاته في الحياة وتنوع علاقاته وسبل تعامله مع محيطه الطبيعي والاجتماعي ومع واقعته الفكري والتاريخي لا يمكن تجريدها من تأثير هذه الجدران الأربعة . ومن ثم فانه لا يفعل ما يختاره وإنما يفعل ما اختير له وبالتالي فهو فاعل ما اكتسبه مما له فيه نسبة من الحرية المحدودة وليس هو مطلق الحرية مستقل الإرادة تام القدرة ، وقد أحسن ابن حزم الظاهري حين قال ما ملخصه : «نقول ولا نخشى في الحق لومة لائم أننا لم نصل إلى حد هذه المشكلة بعد ، وعذرنا في العجز عن حلها واضح ، وهو أننا لأجل أن نحكم على أصل الخير والشر والحسن والقبح والعدل والظلم ، يجب علينا أن نلم

بحكم هذه الجدران الأربعة التي وضعته الطبيعة ووضعه الله بينها وهي :

1- الزمان : حيث إن الإنسان ليس مخيراً في الزمان الذي ولد فيه ونشأ وترعرع وعاش ، ولا شك أن التركيبة الذهنية والنفسية والبدنية والصحية لإنسان القرون الوسطى هي غير ما لإنسان القرن العشرين وغير ما سيكون لإنسان القرون الوسطى . ولاشك أيضاً أن هذا الإنسان وذاك اختار الزمن الذي يريده ومن ثم فهو ليس حراً تمام الحرية في التركيبة النفسية والذهنية ولا في نمط السلوك الذي يحيا عليه فهو قد اكتسب ما هيأه الزمن الذي اختاره له الله بما يحمله هذا الزمن من مؤثرات متنوعة ومتميزة .

2- المكان : فلا يجوز القول بأن إنساناً ما تخير لنفسه المكان الذي ولد فيه ونشأ وترعرع وعاش بين أحضانه ، وأن للمكان من مؤثرات البيئة والمحيط والمجتمع لما يمثل المادة الأساسية الخام لصياغة التكوين النفسي والعقلي والسلوكي للإنسان ويمتحنه خصوصياته الجسمانية المميزة من حيث القامة واللون والطباع وهو حين يفعل فانه لا يستطيع . وإن حاول مخلصاً . أن يتحرر من تأثير هذه المؤثرات المختلفة التي تقتضيها البيئة المكانية ، ولذلك فانه لا يفعل ما يفعله بحرية مطلقة وإنما يكتسب ما هيأه له الطبيعة وهيأه له المكان الذي لا دور له في اختياره .

3- الأبوان : فلا وجود لإنسان قد اختار أبويه ،

المواقف والأنظار المذهبية المؤجلة القائمة على
الرفض والإقصاء والظعن في كل رأي مخالف ،
والشك في كل ما يأتي من الآخر ، فليس
بمستنكر من العاقل أن يستفيد من غيره وأن
يبدي بعض التنازل لمخالفه ، وأن يعترف
بعجزه أو خطئه ، وإنما المستنكر منه كما يقول
ابن حزم : « أن يعجل بالحكم فيقع في الخطأ ،
ويتعسف فيما ليس له به علم ، ويزعم للناس
أنه حل كل المعاضل ، بينما هو في متاهات من
الحيرة ، ومتاهات من العشوة ... » .

بحقيقة الخليفة (كلها) وماهية الوجود (كله) ،
وكنه الأصول التي بني عليها نظام الكون... »
ولا يتيسر للناس ذلك إلا على سبيل التدرج
وعلى مرور الأزمنة وتعاقب الأجيال وتلك هي
النسبية ، وفيها يكمن الحل المنشود لمسألة
القضاء والقدر ، فلننظر لقضايا هذه المسألة في
إطارها الإنساني العام ولنترك الباب مفتوحاً
للأجيال اللاحقة كي تنظر في المسألة بطريقتها
وتساهم في حلها بما يتاح لها من وسائل
وأفكار مبتكرة أو وافدة ، ولنخلصها من



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في الأعداد القادمة

إلى أين نغضي..... شعر : محجوب العياري
رجل لكل الفصول..... شعر : مختار المومني
وتعطلت لغة الكلام..... شعر : سمير تهيمش
في ليالي الصمت..... شعر : شكري معمر علي
رسم بالكلمات..... شعر : جلال باباي
مطر..... شعر : مختار المومني
قصائد قصيرة..... شعر : أحمد محمد النقيب
أنفاس..... شعر : أميرة الرويقي

صفحة من كتاب «السؤال»

بقلم : بلقاسم بن الهاشمي البكوش

هذه صفحات تتضمن بعض الحواطر التي تنشأ في النفس عندما تغادر كهفها وتتجول عبر الشوارع والأقطار والتاريخ والمستقبل وذلك امتدادا لتجوالها وسياحا عبر خفايا الذات (موضوع النص السابق) . وإنها لتتناول المنزل الإنسانية من زاوية وجودية محضة وتحاول البحث أو افتراح . معنى للحياة ، أفضل وأعمق ، يتناسب مع عظمة هاته الهدية الرائعة التي وهبت لهذا الكائن البشري ، والذي لو تم استغلال كل مواهبه بشكل إيجابي .. فإنه في إمكانه أن يحول زواجه إلى أجنة ويتحرر من جحوره السفلى . ليتسامى إلى الآفاق المشرقة .

للجسد لا غير ، والكثير لا يتوفر له ذلك بالقدر المناسب . وقد هيمنت على الجميع «قوى غامضة عمياء» منبعثة من قبور قديمة وجيوب مترفة وأسمك قرش تفعل ماتشاء . في ظلمات الأعماق .

وكان اللاهوت الأول ، القائم على عبادة الأقانيم الثلاثة : السلطة / المال / الجنس / هو الذي يفرض عقائده وأغاط عيشه ... وقد أهملت الذات العليا في النفس ، فأصبها بيانا شتوبا عميقا .

والواضح أن العشوائية تسيطر على الظاهر إلى حد كبير . ولم تكن هناك منارات هادية ، وما يقال هو بعض مالا يقال ، وأغلبه لا يصل إلى الأذان الواعية .

عندما نهض في الصباح أحسّ بالتعب والإنهاك وذلك بسبب أرقه وكثرة دورانه في سراديبه الخفية ، وتسكعه في أنفاقه السفلى . فصعد إلى السطح وارتدى ملابسه التنكرية وحمل معه بعضا من عقله وأخذ يتجول بين قطط شمالية متخمة وفئران جنوبية هزيلة وبعض ثعالب مأكرة فقدت أذانها ، وقد أحكمت سيطرتها على أقفاص دجاج مستسلم مذخور .

وكانت الحشود تسير صامتة ... لاهيالية . وإنها لتتكاثر بنسق مفزع رهيب . ولربما اقتضت الضرورة ، في الألفية القادمة . إحداث رخصة للإنجاب . حتى لا يتضاعف عدد الذين يلهثون وراء إشباع رغبات النصف الأسفل

تستطيع أنتدمر العديد من المرات ، كل أنواع الحياة فوق هاته الأرض ، بشكل كامل ، وفي زمن قصير ... يؤكد بكل وضوح بأن هذا الوحش الباطني لم تروضه قوانين الأرض ولا عقائد السماء بالقدر المناسب . ولا زالت تسيطر عليه رواسب العصر البدائي وتفرض عليه أحكامها . وإذا اقتضى الأمر مرور آلاف السنين لكي تتكون هاته القشرة الإخلاقية التي تكسو ظاهر هذا الموجود الذي يسير على رجلين .. فأنه من الضروري أن تمضي أحقاب طويلة حتى يأخذ العقل / الروح مقاليد الحكم يختلف ولايات النفس ، ويتم تغيير كل قوى الباطن الواعية واللاواعية نحو الأفضل والأسمى ..

وعند ذاك سوف يحدث المنعرج المنتظر وبالرغم من إعجابه بهذا الكائن اللغوي الذي ينطوي على مواهب رائعة ، وأنجز الروائع ، وحقق المعجزات ... غير أنه في الأفق الخلفي ، فأنه لم ير في أغلب الأحيان ، سوى أجساد يفتك بعضها البعض من أجل ذرة من نفوذ أو قطعة من مال أو متر من تراب . كانت اخلاقية المصالح وموازين القوة والضعف هي التي تحدّد جلّ تصرفاتهم وكان للحتميات القاهرة يختلف مظاهرها الجينية والمكتسبة ، العامل الحاسم في تحويلهم إلى ماهم عليه ، وإنهم لم يكونوا سوى مجرد نتائج لأسباب متشعبة . أمّا البستاني فقد نام في أعماقهم ولم يوقظه وعد ولا وعيد ، فتكاثر فيها الشوك والشعابين . كما

وتتضاعف مشاعر الغرابة ، عندما يلاحظ تكاثر محلات الاستهلاك واللغو والتخدير التي يتردد عليها هذا الكائن المشدود بآلاف الملايين من الخلايا ، ويقوده خيال عجيب .

تري ماذا سيحدث لو قال كل أحد ، كل شيء ، إلى كل أحد؟ ومتى ستؤسس «نوادياالسؤال» التي تحاول أن تعرك هذا الموجود الغامض : بنفسه وجسده وشبيهه وكونه ومعنى وجوده وموته ومآله الأخير وتوقف فيه طاقاته المنسية التي لم تهتم بها المدارس والجامعات . ولا يكفي أن تلقى الكلمات الكبيرة والمواظب الإخلاقية والمحاضرات الأكاديمية التي غالبا ما تكون أصداً لخواطر قديمة أو لأفكار مستوردة جاهزة . وتردد القصائد البهيمية بأصوات عالية متوترة ثم يذهب كل أحد إلى شأنه وهمه اليومي .. ويستمر العيش خالياً ، في الكثير من المجالات ، من العدل والود والايان المنير . ولا يحدث أي لقاء حقيقي بين ذوات واعية في إمكانها أن يسمع بعضها البعض . وتستطيع أن تفك وثاقها بالنسق الرتيب والكثير من طرق الفكر السائدة .

أمّا الذئب الهاجع في عمق النفس فيكفي أن يصبح في موقع قوة حتى يبرز وجهه الحقيقي ، فيكشّر عن أنيابه ويفتك بالقطعان التي فقدت حصونها . وما ارتكبه خلال هذا القرن من أعمال وحشية لا تقدر على اقترافه حيوانات الأدغال المفترسة وما يكده من أسلحة رهبة ،

لإسناد الأعداد .. ثم يطويها النسيان !
 وإنه ليس الضروري أن تطول مدة الدَراسة
 الرسمية أكثر من عشرين سنة .. فاقامة ابن
 آدم قصيرة فوق هاته الأرض .. ولكن من
 الضروري أن تشمل العمر كله وتصيح أسلوب
 عيش ومعنى وجود .. فما تميّز هذا الكائن عن
 غيره إلا لأته قادر على تعلّم المزيد من
 «الأسماء» .

وعندما غادر حدود قريته الصغيرة ، تذكر
 همومه الأخرى .. فأحسّ بانفعال وحيرة .. فأخذ
 يطوف في الشوارع ، وقد حمل لافتة ، كتب
 عليها هاته الكلمات الغاضبة : ترى .. من
 يستطيع أن يصرخ في وجه هذا الأخطبوط
 الضخم الذي يسيطر على هذا الكوكب ويسيطر
 عليه أصابعه الغليظة وعجرفته وصلفه وكلّ
 أنماط عيشه وتفكيره .. ؟ ومن يواجه هذا
 الزحف الخفي والظاهر لجيوش التتار الجدد
 ومغول العصر الحديث .. ؟ ومن يجدّد
 انتصارات اليرموك وعين جلول وحطّين ؟ ومن
 يبعث ابن خلدون وابن رشد والغزالي وابن سينا
 وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي من
 جديد .. ؟

وكان صمتا ثقيلا ، طويلا فيه خوف
 وبأس ، يهيمن على هاته المجموع التي خدّرتها
 التراجيل وانتظار مالا يأتي ، فجفت ينابيعها
 الداخلية وتكلست فيها المشاعر الرفيعة
 والأحلام الكبيرة . أمّا بعض الذناب التي

رابط البعض من الرعاة بالمقابر القديمة .
 والبعض الآخر ، قد جرفته الأمواج القادمة من
 بحار الشمال .

ومن جهة أخرى ، فإنّ المداجن الحالية لا
 يتخرّج منها . في الكثير من الحالات سوى
 فراخ صيّقة الأفق ذات بعد واحد ، تعيش ضمن
 دائرة الأشياء . ولا تستهويها الأفكار الرفيعة .

ويبدو بأنّ الأوان قد حان لإحداث معاهد
 نموذجية تعلّم المتردّدين عليها كيف يكتبون
 حسّا علميا تبقى شعلته دائمة التوهّج ولا
 تنطفئ بمجرّد الدخول إلى معترك العيش ،
 ويتقنون خبرات تقنية ومهنيّة ، ويتخلّصون مما
 علق بأنفسهم من روااسب بدائيّة ، ويعتبرون
 الآخر ندا ورفيقا لهم يمتطي نفس الزورق
 الذي يحمل الجميع ، و يتمكنون من التحرّز
 بالقدر الكافي ، من مختلف صور الأُميّات
 الظاهرة والخفيّة . وهذا من شأنه أن يهيئهم
 لكسب معركتي التشغيل والحياة ، بكفاءة
 أكثر .

ولازال يتذكّر مارواه له أحد أبنائه من أن
 أحد الأجوار تعرّض لأزمة قلبيّة ، أودت
 بحياته ، دون أن يتمكن أي أحد من الحاضرين
 من تقديم الإسعافات الأولى له كممارسة
 الضّغط على الصدر والتنفّس الاصطناعي ،
 فعلق هذا الإبن ، بأنّ لوتعلّم مادة الإسعاف
 ، فلربما أنقذ حياة ، وكان ذلك أجدى من شحن
 ذاكرته بالكثير من المعلومات التي لا تصلح إلاّ

وكأنهم في حالة غياب .. وكأن الوجود ليس سوى مجرد صور وديكور .. وإنه ليمر عليهم مرور المياه فوق الصخور .

وكان مقتنعا بأن كل اطمئنان للحياة ، لا يتخلله اطمئنان صادق تجاه الموت لهو الغفلة والزيف وخداع الذات . وإنه لخطأ فادح أن تبقي مسألة الموت ضمن دائرة المواضيع المهمة والمسكوت عنها .. لابد لنا أن نتحدث عنه بصوت عال كما نتحدث عن الحيز عندما يرتفع ثمنه ... وندرسه من كل الزوايا ومختلف المناهج .. وإنه من الضروري أن نحدد وسائل مواجهته بكل وضوح ونتعلم كيف نتصالح معه ونتقبله بطمأنينة واعية ، وبذلك يكتمل وعينا بمختلف جوانب المنزل الإنسانية الأساسية ، فنعيش كل لحظات العمر بصدق وعمق ، ونرحل والبسمة على الشفاه . ولربما يسر لنا ذلك طرق توزيع الثروة العامة بطريقة أعدل ، ذلك لأن الذي يتيقن ، بوعي كامل ، بأنه مجرد كائن عابر ، فإنه سيتحرر من تورمات نرجسيته ، ويدرك بأن الكسب الباطني والتواصل الإنساني هو الأهم ... وسيستخر مكاسبه المادية لتحقيق أهداف الحق والخير والجمال .

وعندما تجاوز هاته المقبرة التي يبهره ، عند الغروب ، مشهد زاويتها وقد أحاطت بها نخلة شامخة وشجرة خرّوب عتيقة ... داهمه على حين غرة ، إحساس بعدم جدوى الكلمات ، حيث تبين له بأنه من العسير أن

تتحول أحيانا إلى خراف ، فإنها قد انهمكت في تسبيح حظائر مواشيتها بمزيد الأسلاك الشائكة .

وكانت استفهامات أخرى تجثم على القلب وكأنها الاحتلال أو الظلمة الخائقة : ترى لماذا لا نحي كما يجب .. ولماذا نهدر فرصة عبورنا الوحيدة بهاته الأرض ، في الإهتمام بالتفاصيل الصغيرة ويكاد يخلو عيشنا من المقاصد العليا التي تتناسب مع روعة الوجود ... ولماذا لا يتوقف كل الناس عن كل نشاط في كل الأرجاء ، وفي نفس الوقت ويجلسون معا بالطرقات ، ليتدارسوا معنى وجودهم وموتهم ويحددون سبل السلام والتألف بين مختلف أجناسهم وأعراقهم وطوائفهم وحضاراتهم ؟ ومضى وهو يتساءل ويمعن في التساؤل ، وكأنه أصبح نقطة استفهام كبيرة تمشي في الشوارع . وعندما وصل إلى المقبرة الصغيرة التي كان يمر بجانبها كل صباح ليحادث أمواتها ويستمع إليهم ... أحس باستغراب كبير من لا مبالاة أكثرية الحشود بالموت وعدم اهتمامهم به وكأنه لا يعنيههم فتراهم خلال الجنائز ينظرون بسطحية مدهشة إلى الجثث وقد أهيل عليها التراب ، بل إنهم لا يشعرون بأي تعجب ، عندما يشاهدون بالمرأى أجسامهم الغريبة الصنع ولا يحسون بأي انهيار عندما ينظرون إلى السماء حيث تتواجد ملايين المجرات ويتسع فضاؤها إلى ما لا نهاية ...

ونداء ات إلى الأحفاد القادمين .
ثم التفت إلى ظله الواقف بجواره وقال له
بصوت خفيّ : لماذا يموت «الطفل» في القلب
ويغيب العقل وتتكاثر الذناب ؟!
وعندما أدركه الغروب ، أخذ «صفحة
السؤال» وألقى بها للريح .. فلربما حملتها إلى
أولئك الدراويش الذين يرغبون في بناء قرية
العقل / الروح حيث يولد الإنسان .

تصبح جسورا ممدودة بين عمق الـ «أنا» وعمق
الـ «أنت» فتحمل له وتتلقى منه وهج المشاعر
ولهيب الإنفعالات والتساؤلات وإشراقات الفكر
، كما تكون حية ، مانجة ، متمازجة في أعماق
الباطن وخفايا الروح .. فهم بأن يقطع لسانه ،
وينضمّ إلى مدخني التراجيل ... غير أن بعض
الأمّل تداركه .. فمضى يحلم .. ويعقد جلسات
سريّة مع «أفلاطون» و«الفارابي» وينقش على
صخور الشواطئ المهجورة الخالية ، قصائد شعر



في الأعداد القادمة

ـ السّياحة الثقافية : الواقع والآفاق..... الأزهري النبطي
ـ حوار مع آلان روب غرييه أجرى اللقاء : واعد هيمان
ترجمة : مجيد حميد جاسم

د . حسين سرمك حسن

الصّحبي العلوي

في علم نفس الإبداع
لعبة يوسف الصانغ .. وعقدة
الاتصال بالمحارج .
ـ دنيا محمود طرشونة :
تفكيك لمكونات مثقف معطوب

مقاربة التراث والسياحة

سليانة أنموذجا

بقلم : تميم جلال

* مدخل حضاري :

تولد الحضارة من داخل النسق ... وحتما لا ينشأ الإبداع خارج النسق .. والنسق هو كلنا الباقي .. هو تشكّلنا الحضاري الذي لا يبلى .. حين يبلو القدر التاريخي أخبارنا .. وهو عمقنا الاستراتيجي وعرقنا .. وهو في المحصلة مرجعيّتنا وخلفيّتنا الإنسانية . إن النسق هو صميم الهوية الحضارية . الهوية التي استنبت فسيلتها الأولى الأسلاف وصاغوا وعاءها ثم زان ثوبها وثقها العابرون حين اعتملوا بها ضمن الجدل التاريخي ويراكمها الأخلاق اليوم بمفاعيل التنوير والتنوير والتحرير ..

... وتبعنا لذلك ، فإن مقولات : الحضارة/النسق/الهوية .. تبدو في الظاهر متنافرة ولكنها في العمق متناصة لأنها قرينة الزمن .. الزمن الذي اعتملت أمشاجها في تجاويله فتمخّض عنها فكانت ألفتها .. ومن هذه الألفة تشكّل التاريخ وفاعله الإنسان هذا الكائن الرسالي المبدع هو الذي نحت في الصلّد

والجلمود وطوّع العصي والمهاد من الطبيعة فكانت مآثره المنجزة في الحقب ماثلة أبنية وأضرحة وقماثيل ونقوشا وزخارف ومعالم ورموزا وحروفا توثق طرائق عيشه وقيم عصره وتؤرخ أحقابه المتسلسلة . دون قطائع . والمفضية بعضها إلى بعض ..

لذلك ليس في الزمن الإنساني قطيعة .. ولا ثبات .. ولا فجوات ، وإنما دفق التاريخ دائما ... قد يتغيّر مجرى النهر وقد يضعف أو يقوى منسوبه .. وقد يفيض على الترع حين عذبا فراتا وأحيانا ملحا أجاجا ! ولكن النهر واحد والسمت واحد غير محكوم بعشبة الأقدار بل بسنن الله في الخلق والآفاق ..

.. ولما كان التراث هو إفراز الإنسان داخل التاريخ بكلّ المقدّس منه والامقدّس .. بكلّ المائل مبنى والمتشافه معنى ومغنى بكلّ الموثق منه والمصنّع .. فأنه العصب الحيوي الذي به تصلب هامتنا .. فمنه تشكّلت هويتنا وهو الذي يصيغ برهتنا .. ذلك هو التراث صراط فرزنا الحضاري ..

ينشدون السّياحة أبعد من زرقة البحر .. يحطّ أولئك الرّحال عندنا مدفوعين برغبة الاسترخاء عند رمل الجنوب وحيث شواطئ السّاحل يتراوحون بين البحر والشمس .. ولكن ليس قدرا أن لا تكون السّياحة إلا صحراوية أو بحرية .. فرغبات الآخر معرفيّة أكثر ، وجموحه نحو استكشاف مجاهيل الأرض أكبر نحو كنوزها ومآثرها وما انطوى عليه الماضي منها ..

فالسّياحة ثقافيّة بالأصل .. فحين يتبدّد الجمال وتفقد الطّبيعة بعض فتنتها تبقى الثقافة بساحتها لا تتبدّد ..

*أولا: السّياحة الثقافيّة بالشّمال الغربيّ - سليانة نموذجا :

الشّمال الغربيّ التّونسيّ له الحظّ المهيمن من زخم التّاريخ وتراكماته التي عرفتها بلادنا باعتبارها موطن قدم لإنسان ما قبل التّاريخ ولإنسان اللّصوص البونيّة والرّومانيّة والبيزنطيّة والعهد الإسلامي ، فجملّة التّعبيرات الثقافيّة السّائدة في هذه الرّبوع (الفنيّة والحرفيّة والشعبيّة والأسطوريّة والعادات والتّقاليد ..) تستبطن رموز الماضي السّحيق بمزيج ما انصهر منه .. حتّى مسميّات الأشياء والأماكن وخليط التّرميزات الشعبيّة المتعدّدة والمكثّفة والمعقّدة كلّها ترجيعا لصدى الماضي - مابقي منه - ولم يتبدّد .. وتبقى المعالم المعماريّة والمسارح

والتّراث هو الكلّ والآثار والمعالم هي جزء من الكلّ والفرع لا ينقسم عن جذره إلا كان ميتا .. إنّها (الآثار) جزء من الثروة الوطنيّة .. مندرجة في ذاكرة وسجّلات التّراث الإنسانيّ .. إنّها معالم انتمائنا للأرض والتّاريخ وهي شهادة ميلادنا وانبثاقنا في الزّمن وشهادة إثبات لحضور أسلافنا - من نقف على أكتافهم - في التّاريخ .. حضور الشّهادة والفعل والبناء والتّأسيس ... شهادة المجد والكبرياء التّاريخي ..

ولما كانت الآثار جزء من التّراث الإنسانيّ فهي بالتّالي مكسب البشريّة ومرجعيتّه توثيقيّة للتّاريخ والمعرفة الجمعيّة .. وتطلّ بالضرورة مشغلا معرفيا للأكاديميين والمؤرّخين والمولعين بالشّأن الحضاري ، وحيثما تكون هذه المعالم ييمّم المهتمّون وجوههم شطرها من أجل النّبش والتنقيب والبحث للتّاريخ والتّثريث والتّوثيق ، لأجل المعرفة بصرف النّظر أولا عن نظافة الأيدي وبراءة الذمّة المعرفيّة ! ..

وضمن هذا السّياق تآخر بلادنا برصيد أثريّ المخزون .. منه ما تمّ كشفه وتحمينه وإبرازه وكثير منه مذكور ينتظر الإحياء .. وذلك على خلفيّة عراقية تاريخنا وزخم الحضارات التي تعاقبت على أرضنا .. وهذه العراقة والتجذّر هما اللّتان تدفعان الآخرين على الضّفة الأخرى لعبور الجسر

(ميسيتي) (الكريب) والذي يتواصل مع مدينة بورويس مروراً بقرية جامة (زاما) التاريخية عبروا إلى المواقع الأثرية بمكسر وكسرى وصولاً إلى برقسو عبر محمية جبل السرج (سيدي حمادة) .. هذا الدرب الأثري يحتزن ثروة وطنية من المعالم والمواقع . العديد منها لا يزال متموضعا تحت القشرة الأرضية والصفائح الصخرية مثلما حال القرية الأثرية التي أكتب منها والتي تصل ضمن المسلك المذكور موقع «ميسيتي» بأثار دقة ..

إنّ اللقي والموادّ الأثرية كالأدوات المصنوعة من حجر الصّوان أو من عظام الحيوان والقطع الفخارية وعدّة هياكل عظام إنسانية والتي عثر عليها ضمن هذا المسلك في دكانة الخطيفة بجبل القرية (كسرى) أو في صدين ومكشروهنشير الحامي (بورويس) .. تؤشّر لخطوات الإنسان العريقة بصماته وجذوره في هذه الأرض والتي تعود إلى الألف الخامسة ق . م . / لقد صنع الإنسان الحضارة في هذه البقعة (سليانة) على عهد اللوبيين ثم على عهد حنبعل عندما ضمت قرطاجة في القرن الثالث ق . م / القسم الجنوبي من الولاية إلى ممتلكاتها .. وبعد هزيمة القائد التاريخي حنبعل سنة 202 ق . م قرب «زاما» في الحرب التي جمعت روما وقرطاجة ، صار للملك التومسيدي ماسينيما النفوذ والسيطرة على جنوب سليانة واتخذها دائرة

الأثرية والأقواس والحنايا والسّاحات والقبور الجلمودية والمعابد المائلة .. إلخ الراسية على الأرض / المائلة في التاريخ هي المشهد الأثيل لمجد هذه الأرض التليد ..

فبين دقة و«ميسيتي» بالكريب وجامعة ومكسر وكسرى .. وامتدادا إلى الكاف ولأرجيا ثمة نسيج أثري متفرد متلاتم .. هي حتما مسالك يقضي بعضها إلى بعض زخرف المعمار أصنافا .. إنها مسالك الأبطال التاريخيين : مسلك بوغرطة بالكاف ، ومسلك حنبعل سليانة ..

***مسلك حنبعل سليانة:**

مسلك الحضارة

إذا كان أخصّ مدلولات الحضارة هي الحضور والحضر والمدينة فإن إعادة استكشاف المواقع الأثرية وتأهيلها معمارياً وتاريخياً ومعرفياً على خطية الخطة الوطنية للنهوض بالسّياحة الثقافية والتي تمتدّ أربع سنوات (2000 - 2004) يعدّ تأصيلاً حضارياً لهذا المخزون .. وإنّ حركية استكشافية وطنية وعلمية ننشدها للكنوز الأثرية بسليانة وتأثيرها بمتحف جهوي يؤمن ويوثق الحيوية الأركيولوجية بالمنطقة من شأن ذلك أن يعطي زخماً ثقافياً / سياحياً .. وفعلًا حضارياً وشرطاً تنموياً مستديماً لسكان هذه الجهة .. فمسلك حنبعل المنطلق من المحمية الأثرية

إدارية نوميدية تسمى دائرة «تسكه» حسب نقيشة وجدت بجبل مصّوج .. ثم كان انصهار هذا الإقليم تحت النفوذ الروماني بعد هزيمة الملك النوميدي سنة 46 ق . م وتسليمه للعاصمة زامبا للقائد الروماني قيصر الذي دخلها مسالماً أهاليها وحوكلها إلى مقاطعة رومانية .. «وفي ظلّ الحكم الروماني الذي عمّر طويلاً عرفت جهة سليانة ازدهاراً اقتصادياً وغوّاً عمرانياً كبيراً جعلها تساهم في نحت الثقافة الرومانية لإفريقية» .

إنّ عديد الأسماء للقرى والمدائر بسليانة محملة بدلالات تاريخية من العهد اللوي القديم مثل زامبا (جامعة) ومكتريم (مكثّر) وميديديّة (صديّين) وكسري ميسيتي (الكرب) .. وميزيتيرا بوجليدة ببوعراة .. وتيمسوا (تقفور) وتبرورا (العروسة) .. وأثار الحضارة اللوية بالولاية ماثلة بقاياها إلى اليوم في الأسوار والمقابر الجلمودية .. إلخ

العمق الحضاري لسليانة:

لم تكن سليانة بمنأى عن كلّ التفاعلات والتراكبات الحضارية التي احتضنتها بلادنا .. كانت في قلب حركة التاريخ مؤثرة أو متأثرة .. مؤسسة أو متأسسة متواصلة أو موصولة .. مشعة كرافد أو مستنيرة بالوافد .. وإنّ المشاهدة المعرفية المستقرنة لأركيولوجيا الأسلاف في عديد المواقع ضمن مملكة حنجل

خاصة في ميسيتي ومكثّر يدرك سمات المدنية المتجذرة من خلال التنظيم والتفسيح المعماريين والمعالِم الدالة على أصالة الظاهرة الاجتماعية .. والمواقع الخدمية كالحمامات والأسواق والمعابد والساحات العمومية والمحكم وأقواس النصر والملاعب .. وكلّها دلالات على ما أسلفنا . وقد ارتبطت سليانة بعلاقات تجارية مع قرطاجة وأثرت وتأثرت بالحضارة البونية وأسهم إهاليها في إشعاعها .. واعتنقوا الديانة القرطاجية وشغفوا بعبادة الإله «حمون» فبنوا المعابد وقدموا له القرابين .. كما أسهموا في الحروب التي شنتها قرطاجة ضدّ الإغريق ثمّ الرومان .. وظلّ الأهالي على تمسّكهم بالحضارة البونية إلى زمن متقدّم من العهد الروماني .. ثمّ أنخرطوا فيما بعد بفاعلية في الحضارة الرومانية .. وكلّ المعالم المشيدة تاريخياً في هذه الربوع المذكورة سلفاً تثبت العراقة المدنية والدينية لسليانة ..

لقد تلاءمت سليانة مع الحضارات التي تعاقبت عليها دون التواطؤ وانصهرت دون فقدان لخصوصيتها الجغرافية وكيانها المحلي وميّزات إنسانها الأنثروبولوجية المتكوّنة تاريخياً .. مازالت تلالها تحفظ ذاكرة الإنسان الأوّل وجبالها تؤمّن في تجايف صخورها الجلمودية نقوش العابرين وعبارة الأسلاف ... ولا زالت عديد معالمها حاملة لتسوّن الإنسان

الأدول وبصمات تفلّ الصّخر وتطوّعه للحضارة ..

سليانة بؤابة رئيسيّة للسياحة الثقافية :

إنّ الإنسان والجغرافيا هما المدخلان الأساسيان للحدث باعتمادها شمس تنزع كلّ يوم كما سأمها هيق .. وهي ربيبة الزّمن والزّمن فاعله الإنسان ومسرح فعله هي الجغرافيا / الجغرافيا بما يتبدّى على ظاهرها وما تلتصم عليه تحت لحاها .. وجزء من تلك الثروات هو التّاريخ الذي تستبطنه الثروة الأركيولوجيّة .. إنّ الحفريات التي تمّت في مسلك حنبل بسليانة لم تقط اللّثام إلّا على اليسير من الآثار .. ولا زالت «ميسقي» والتلال المجاورة لها في خطّ متواصل إلى دقّة ترقد على كنوز أثرية هامة .. ومدن أثرية بأكملها وهو ما أثبتته خبراء الآثار الألمان الذين زاروا الموقع خلال السّنوات الأخيرة .. وعديد الاتّفاق المتّصلة بهذا المسلك لم تشملها الحفريات بعد .. إنّ الاصطلاح على وجود هذا المسلك الأثري يشهد بالضرورة التّاريخيّة وجود معالم التّواصل وبنيت الأثرية .. وهذا الكشف الذي ننشده على وتيرة هذه الإرادة الوطنيّة لاستثمار الأركيولوجيا في التنمية الثقافيّة والمعرفيّة والسياحيّة بالأساس .. من شأنه أن يدفع بالجهة إلى دائرة الضّوء على

مستوى إدراجها في خطيّة السياحة وتأهيلها بنويًا للاستقطاب ولمدّ جسر آخر على اليابسة وفي مرتفعات الشّمال الغربي من أجل خلق مجال آخر حيويّ لتفعيل تطوير وتنوع ديناميكيّة السياحة .. السياحة الثقافيّة في سليانة تملك جملة المقومات لتفعيلها ..

فإذا كانت الشّقافة في التعريف الأنثروبولوجي تعني أبسط أنواع السّلك الإنساني المشترك والمكتسب والمتوارث وفي تعريف أدقّ «هي كلّ ما يبقى حين ينتهي كلّ شيء» .. وهذه الرّوع تختزل هذا المفهوم وتحتضن هذه المعالم الباقية المعبرة عن ثقافة التأسيس .. لم تكن سليانة أرض العبور للمندحرين أو المتصرّين .. لأنّ المندحر بحرق كلّ شيء والمتصرّ يستهلك كلّ شيء ... وهذه البقعة كانت أرض التأسيس أنجزتها العقول الهادئة وأنضجتها التجارب الحضاريّة العريقة وأمنتها هم أسلاف هذه الجغرافيا العلقين بالأرض حدّ الولاء .. «فالأيادي المرتعشة لا تقوى على البناء» .. ومما يؤكد هذا البعد التأسيسي أنّ لآثار جامعة أهميّة معرفيّة وتوثيقية لها الحظّ المهيمن في التّاريخ لتونس في العهد القديم باعتبار تحوّلها إلى عاصمة ملكيّة كما ارتبط اسمها بمعركة سيبيون وحنبل التي غيرت وجه العالم القديم .

إذا .. وتبعاً لهذه المقاربة فإنّه لا يمكن بحال

أجيال هذه المرتفعات أهمية الأرض التي يقفون عليها ورمزية هذه المعالم الماثلة في محيطهم تقاوم الليل والنهار وصروف الزمان وعجرفة العابرين ولا تبلى بل تمتع من أحجارها المصقولة بريق العراقة والكبرياء التاريخي وأصالة الحضارة التي نبحث عن ذواتنا فيها ..

كيف نؤسس ونؤثث لمشهد المستقبل ونحن نجعل الأرض التي نقف عليها ؟! .. كيف نخطو الخطوة القادمة .. ونحن نجعل الخطوة السالفة ؟! .. كيف نملك أن تتفاعل مع الآخر .. ونحن لم تتفاعل بما ينبغي أن يكون مع ذاتنا مع المغيّب فيها .. والحاضر / الغائب فيها !!!

.. وروح الماضي .. إنها التاريخ ذاته .. والحضارة هي الحضور الدائم في التاريخ والحداثة هي الوعي بالزمن وهذه المعالم هي تأشيرة الحضور الأوّل في التاريخ الذي يفضي حتما للحضور الأخير ، والأوّل يكسب الأخير عنوان الهوية والاعتراف والانبعاث الدائم ..

* السياحة ثقافية بالأساس :

يجيء شهر التراث خلال دورته العاشرة من 18 أبريل إلى 18 ماي 2001 محمّلاً بشعار (التراث الثقافي والسياحة) تنشد بلادنا من خلاله تأصيل وتبينة السياحة ضمن منظومتنا الثقافية ..

إن السياحة ثقافية بالأساس / إن السياحة

التاريخ لتؤسس دون المرجعية الأركيولوجية والثاقية التاريخية لسلطنة .

* سليانة والبعد المنشود :

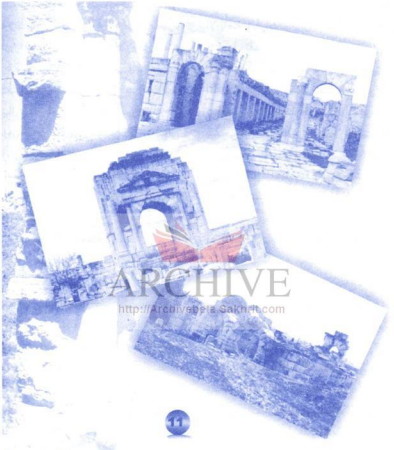
الموجود هو نقلة نوعية لاستراتيجيا الدولة مضمونها خطية وطنية مديدة تستهدف الارتقاء بالمسألة التراثية الأثرية نحو تنظيم القطاع وتفعيل أدائه وبعث الهياكل المختصة الجديدة (وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية) وقد تم إدراج سليانة ومكشّر وكسرى ضمن المدن المستفيدة من استثمارات الدولة في مجال السياحة الثقافية .. ويتمّ التعهد للمواقع الأثرية بالجهة في إطار محميات أثرية بالصيانة والتأهيل المعماري والعلمي للأزمين للإستقطاب السياحي .. أما المنشود فهو التأهيل المدني

والبنوي الأساسي لهذه المدن والمواقع والمسالك الأثرية إلى جانب تفعيل المعطى البيئي والطبيعي الشري في المنطقة من أجل توظيف الجمالية في مسألة الاستقطاب .. ويظلّ الإنسان نزير هذه الربوع هو الرأس مال المحوري المكوّل له الدور الطلائعي أولاً : في إشاعة الوعي لديه بأهمية هذا الإرث الحضاري محلياً ووطنياً .. وثانياً : في إيجاد فعاليات ثقافية وعلمية جهوية دورية ومستديّة تؤطرها وينشطها نخب الجهة بتوجيه أساتذة الاختصاص في الجامعة التونسية حتّى تعرف

مجتمع ما شرعيته إذا ما حاول الانقسام أو الإطاحة بالثراث .. وإن الإنخراط فيه تحميرا وتنويرا وتفعيلا هو الضامن لاستمرارنا في التاريخ أولا .. ونسيج خصوصيتنا وتميزنا عن الآخر / .. الآخر القدام إلينا من وراء البحر يتطلع لهذه الخصوصيات وذلك التميز .. فهو يسعى لأن يعرفنا بما هيئتنا لا بما هيئة أخرى نتقصصها .. فيقدر ما نؤثث مشهنا السياحي من مجلياتنا بكل ما تفرزه حتى الأدوات البسيطة المستنفذة أغراضها أو المستخدمة في يومياتنا حينما توظف تزين المشهد ، وكلّ قظهر إبداعيّ تجعله متألّقا سياحيّا .. لأنّه بأولاد متلامم جدّا مع محيط محليّته غير نشاز ... ولأنّه إبداع ذاتي .. فالإبداع - أيّا كان تشكّله - بقدر ما يرتبط عضويّا بمحليّته بقدر ما يكتب له الإشعاع أبعد من محليّته ونحو العالميّة ..

إنّ عادات الأفراس والزردة والأعياد وعاداتنا اليوميّة وأدواتنا المتقدمة المستخدمة في البيوتات أو الفلاحة والصيد .. وحلي المرأة في الأعراس والملابس التقليديّة للزينة وغيرها .. كلّ ذلك جزء من رصيدنا الثقافي / التراثي .. كلّ جزء من مكونات محيطننا الباقية البشريّ منه والطبيعيّ والتاريخيّ يمكن أن توظّف لمعطى الجماليّة السياحيّة إذا ما تمّ إحياؤها وتعهدها وترميمها وصيانتها

ثقافيّة أو لا تكون ! فالسائح المنجذب إلى بحرنا وصحراننا وفنادقنا وواحاتنا هو مدفوع بالضرورة لمعالم الجماليّة عندنا والذي يصنع حيويّة هذه القيمة هو الإنسان التونسي بما يستغرق هذا الفاعل من عادات وتقاليده ومخيال شعبيّ وطرائق عيش وموروث روحيّ ومخزون ثقافيّ تعبيريّ مشترك .. وبالتالي فالسائح يغترف بالضرورة من ثقافتنا - أيّا كانت ثقافته - ويؤوب حتما محمّلا بأصباغها .. إنّ المدلول الحضاري للثراث خصب يشمل كلّ ما خلقه لنا الأسلاف من كلّ منجز ونتاج ممّا أفرزته مفردات العقل واللسان والقيم والأرض والإبداع من جهد الناس / كلّ الناس في دائرة الضوء كما في أقيسة النسيان ، الثراث هو التقاليد والعادات والعقائد والشرائع والمآثر الأثيلة والآثار غير الدارسة .. هو خزان الثقافة العالمة المقروءة والمدوّنة بكلّ أجزائها المستبعدة أو المعروفة والرسميّة .. والثراث هو المحكي والمتشافه والمتناقل المتوارث عبر الأجيال تفضي حلقاته بعضها إلى بعض ويراكم الوافد منها الرافد .. إنّه كلّما نسقّ مخيال الجماعة بالأمس القريب والبعيد وشكّل رأسمالها الرّمزي وهويّتها الحضاريّة « ... وهو من المقدّسات ومن مصادر الشّرعيّة في المجتمع على حدّ ما يقول ماكس قيبير ... » وعلى خلفيّة هذا التعريف يفقد



سياحياً أو غيره لا يولد إلا من داخل النسق /
نسقنا هو ثقافتنا ... يولد فيكون حياً نظراً
وشرعياً ..
.... إن السّياحة ثقافيّة بالأساس ...

وتفعيلها وتأهيلها .. وتلك هي الجماليّة
الحقيقيّة تختزل كلّ عناصر المشهد دون انتقاء
أو إهمال .. وذلك هو الإبداع الحقيقي كان

مدينة المتلوّي عبر التاريخ

بقلم : محمد العائش القوتي

وقد نقل من هذه الأماكن المهندس الفرنسي هاديست إلى متاحف أوروبا باريس وروما الكثير من الآثار وخاصة من منطقتي الحماة والصيف .

وأرضها تحدها شمالا وشرقا قرية أولاد سلامة المعروفة الآن بالدوارة جوفي : منطقة فلاحية تنتج الفستق والزيتون ، وغربا فجّ النخلة والرملية والدغيمية والحماة والحمايرية ووادي الطرقاتي ووادي المالح والسبب ووادي جمل ، ومن الجنوب الشرقي عين عبدو . والتي تقع على سفحي سلسلتين من الجبال الممتدة جوفاً هما جبال الصيف والجحشة ومن الجنوب الشرقي أيضا جبال السقي القبلي والشارب والباطن وخندق الواعر ووادي الزبالة والأشيرة : ذات السهول المنخفضة الصالحة لزراعة الحبوب كالقمح والشعير وتربية الماشية كالماعز والأغنام والإبل والحيل والبغال والحمر التي يملكها قبائل أولاد بويحي ، أولاد مبارك وأولاد عمارة وآخرين مثل أولاد سحيم وأولاد دينار وهم جميعا عرب رحل كانوا يسكنون بيوت الشعر

تقع مدينة المتلوّي في الجنوب الغربي للبلاد التونسية ولاية قفصة، وقد عرفت بهذا الاسم « المتلوّي » = المتلوّي : نسبة للوادي الكبير الذي يخترقها لكثرة منعطفاته والتواءاته .

وهي ذات تاريخ قديم ومعالم أثرية رومانية كجبل الثالجة وعين عبدو والسقي الغربي وريشة النعام (السواني قابديت) ووادي السهيلي والقويقلة والبرج الأحمر ويقول في هذا المجال المهندس الجيولوجي الفرنسي فيليب توماس في كتابه محاولة وصف جيولوجي بتونس : « في 18 فيفري من سنة 1885م قمت في قرية الدورة ووزعت خيمتي بالسفح الشمالي لجبل الثالجة بالقرب من مجرى الوادي : واد الثالجة (النقطة المشار إليها بالخريطة براس العيون فوق أرض حمراء تتكون منها هضاب أولاد سلامة المعروفة تحت إسم الدوارة وهي آخر درجة ينحدر منها الأطلس نحو الصحراء التي تفصلها سلسلة جبال الثالجة الطويلة. » (1)

والمسافرين فكانت مدينة المتلوي التونسية في عهد الاستعمار الفرنسي هي المركز والنقطة والمقر الرئيسي للشركة بعد الإدارة العامة بباريس فرنسا ، ووكرا للاستغلال الفاحش من طرف الاستعمار الفرنسي فوضعت فرنسا ثلاث ثكنات للجيش الاستعماري واحدة بمحطة المتلوي والثانية بجانب نزلة السوافة والثالثة بمنجم المتلوي (الكبنية) . وكان العمال يعيشون في الاتفاق بباطن الأرض الجبل والأكواخ والمغاور الصغيرة على سفحه بجبل واد الارطة (والكائنة : المراكبة : المغاربة) وحي سوق الطرابلسية الليبيين () ونزلة السوافة الجيزاتيين والقبائل .

وأما الأهالي العرب فكانوا يسكنون بالصحاري ، وكانت تسميهم فرنسا ، فكانوا هؤلاء العمال جميعا من مختلف الأقطار والأجناس كادحين يعملون بقرق وجه كبير لقاء أجرة زهيدة لا تكفي سد رمقهم فيرجعون إلى أكواخهم منهوكي القوى ومنهم من تقتله حوادث الشغل داخل الداموس بغير ضمان ولا مقابل (« لا نايحة لا دفينه ») ومنهم من يموت بأمراض الوباء القاتلة حتى إن الدكتور شارل نيكول (1866 م - 1936 م) العالم الفذ وصديق تونس والذي شغل مدير معهد باستور بتونس العاصمة منذ سنة 1906 م إلى سنة 1936 م يوم توفي ودفن بمعهد باستور

وينتقلون من مكان إلى آخر في الصحراء الشاسعة التي كانت تسمى صحراء علي بن خليفة ، وذلك للمرعى الحصب والماء لهم ولحيواناتهم وكانت هذه الصحراء الشاسعة كثيفة بأشجار الرتم والباقل والعجرم والبسط والمتنان والطرفة وغيرها ... وتسكنها حيوانات مختلفة كالغزال والأرنب والقط والحجل والذئب والثعلب خاصة أولاد بويحي إلى عروش الهمامة المنحدرين من العرب الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية إثر الفتح الإسلامي .

وعند احتلال الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية منذ سنة 1881 م جاء المهندس الجيولوجي الفرنسي فيليب توماس واكتشف الفسفاط يوم 18 أبريل 1885 م بختقة المجازية الهلالية الشالجة ويوم 18 مارس 1897 م أنشئت السلطة الاستعمارية الفرنسية شركة الفسفاط والسكك الحديدية صفاقس ، قصصة لإستخراج الفسفاط من مناجم (المتلوي أم العرائس والرديف والمظيلة صهيب ولاية قفصة) والقلعة الجرداء سابقا القلعة الحصبة حاليا ولاية الكاف) فمدت السكك الحديدية بين المتلوي وقفصة ، وصفاقس ، الغربية وقابس ، والمتلوي ، وأم العرائس والرديف ، والمتلوي وتوزر ، والقلعة الحصبة بحلق الوادي الميناء لنقل الفسفاط

توماس « أو محطة المتلوي نسبة إلى الجيولوجي الفرنسي مكتشف الفسفاط « فيليب توماس » وأقاموا له نصبا تذكاريًا بساحة محطة القطارات من الخارج وكذلك عدة نصب تذكارية من البرنز بمتحف منجم المتلوي ، ثم بمقتضى الأمر رقم 124 مؤرخ في 13 أبريل 1960 م وقع توسيع دائرة بلدية مدينة المتلوي إلى ما هو عليه الآن (4) .

وفي السنوات الأولى من الإستقلال كانت المتلوي هي المعتمدة الوحيدة للمراكز النجمية : (أم العرائس والرديف والمظيلة) وكانوا يتبعونها إداريا ومعتمد واحد بمدينة المتلوي فهي المركز الرئيسي لهم وإلى الآن بالنسبة لإدارة الشركة وأول معتمد في بداية الاستقلال المرحوم المنصف بلخيرية ثم الحبيب قرفال : رئيس المنظمة الوطنية للتربية والأسرة ورئيس منظمة الدفاع عن المستهلك ويقول الشاعر النجمي في مدينة المتلوي :

مدينتي
تظل جميلة عندي
برغم جميع ما فيها
أحب كل نواحيها
أحب نداء باعته
أحب الخمس حاناتها
ومقاهيها
شوارعها

يقول في مذكراته أنه في حوالي سنة 1912 م (... ها أنا بقفصة أدرس دمل المشرق ثم مررت بطريق سوسة - صفاقس أو بمسالك المتلوي المؤدية إلى توزر أدرس حالات الأمراض المنتشرة في ذلك الوقت .. (2)) وأما الأوروبيون (فرنسيون وألمان وإيطاليون ومالطيون ويهود واسبان وغيرهم ...) فانهم يتعمون بأرغد أحوال العيش فكانت ملايين الأطنان من الفسفاط تشحن عبر القطارات إلى مينائي صفاقس وحلق الوادي ثم إلى مرسيليا بفرنسا لينعم بعائداتها المهندسون الأجانب الذين كانوا يعيشون في أحياء عصرية وأوروبية مزودة بالمرافق المعيشة المريحة وكان محظورا على العزبي من أي جنسية كانت دخولها . وحتى أطلقوا على مدينة المتلوي باريس الصغيرة (3) ومعتمديتها الآن تعد أكثر من 100 ألف ساكن كانت تسمى في عهد الاستعمار الفرنسي خلافة وبها مشيخة أولاد مبارك وشيخها آنذاك عمي المرحوم الشيخ الأشهب بن عبيدي وأما المشيخة الثانية فهي مشيخة أولاد مبروك وشيخها المرحوم الشيخ حمد المسعاوي أولاد عمارة) . وكانت تابعة لعمالة قفصة سابقا ولاية قفصة الآن .

أما بلديتها فقد انشئت يوم 11 نوفمبر 1908 م وكانت تسمى بلدية « فيليب

أغانيها

مساجدها

ومصلحها . (5)

ووقعت أحداث بالمتلوي والمظيلة يوم 4 مارس 1937 م بسبب إصرار عملة مناجم الفسفاط اعتناق الحركة الوطنية التونسية والمطالبة بحقوقهم الاجتماعية ، فاستشهد جانب كبير من عمال منجمي المتلوي والمظيلة وقد وقعت مساندتهم من عمال منجمي أم العرائس والرديف وبشير الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري إلى حوادث المتلوي أثناء إحدى زياراته إلى تونس العاصمة سنة 1937 م وذلك ضمن نشرة اختاروا لها تسمية (النشرة الأولى) - (النشرة الثانية) - صدرت عن مطبعة شباب تونس وذلك خلال سنة 1937 م حيث قال الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري : (... فحياكم الله لو بالأمة كما مثله شهداء المتلوي قتلى الظلم والغطرسة والوحشية - رحمهم الله .)

الهوامش والمراجع والمصادر :

(1) راجع كتاب محاولة وصف جيولوجي بتونس للمهندس الفرنسي الجيولوجي فيليب توماس عضو البعثة الفرنسية العلمية المكلفة بالتفتيش العلمي

بتونس ومكتشف الفسفاط بالمتلوي يوم 18 أبريل 1885 م وهذا الكتاب يتألف من ثلاثة أجزاء ويتحدث عن الطبيعة الجغرافية والترابية لبعض جهات القطر التونسي في الشمال والوسط والجنوب وأقصى الجنوب .

(2) دراسة بعنوان « شارل نيكول (1866 م - 1936 م) عالم فذ وصديق تونس الكبير - بقلم عمر الشاذلي مدير معهد باستور بتونس العاصمة - أستاذ بكلية الطب بتونس العاصمة وعضو مراسل بأكاديمية الطب بباريس فرنسا مجلة 3 - تبادل عدد 1 شهر رمضان 1401 هـ - جويلية 1981 م . التابعة للديوان الثقافي لسفارة فرنسا بتونس العاصمة (من ص 1 إلى ص 12) .

(3) قصة اكتشاف الفسفاط بالمتلوي بقلم محمد العائش القوتي دراسة نشرت بمجلة 3 - تبادل عدد 1 - شهر رمضان 1401 هـ - جويلية 1981 م التابعة للديوان الثقافي لسفارة فرنسا بتونس العاصمة من (ص 13 إلى ص 14) .

(4) راجع دراسة بعنوان : « شركة فسفاط قفصة رائدة التعدين في تونس » مجلة 3 - عدد 2 تبادل التي تصدر عن الديوان الثقافي لسفارة فرنسا بتونس العاصمة - شهر صفر من سنة 1402 هـ الموافق لشهر ديسمبر من سنة 1981 م (من ص 79 إلى ص 87) (5) راجع المجموعة الشعرية (« من يوميات عقبة بن نافع في بلاد القيروان ») لمحمد العائش القوتي صدرت عن منشورات مجلة « الاخلاء » تونس العاصمة شهر أوت 1983 م وكذلك المجموعة الشعرية المشتركة (« الرياح اللواتح ») لمحمد العائش القوتي والناصري عليّة والبشير المشرقي وعبد الرؤوف بوفتح صدرت عن منشورات مجلة « الاخلاء » تونس العاصمة شهر نوفمبر 1983 م .

الاحتفاء بالنص .. متعة القراءة الأولى

زيد الشهيد

الناص () ، وتقتحم فضاء ناظريك غرابية التكوين المشفر .. تعد أدوات الشروع إرهاصا ثم نظرا ، ثم تبعا .. يستدرجك عطر الكلمات الأولى - بعد فح العنوان - حيث لحظة انطلاق النص / الاستهلال الخادع (1) .. تأخذك لوحة غامضة مشيرة بجغرافيتها / ضجيجها باستيهامات طقسها .. كينونة نثار لتفضيلاتها .. نهار / تنشق على دركات ذاتقتك لذاذات تتابعية أسرة وصفو خرافي يسوقك كالحاكم / كالمخدر / كالمأسور / كالمهوس / الجائع جوعا شهوانيا للتناول ضمن حدود هيمنة التداخل اللحظوي .. تستلك من الماصول فتبتين نفسك وسط رغبة ضبابية زرقاء ، تسكب في قدح مسمعمك أصواتا تقطع عنك خط التواصل المكاني . المائل ظ منقادا تحت تأثير غواية عطر المفردات ، فاذا النص استحالة رحلوية كرنفال صفائي تكرسه تمازجات لونية تنتج منمنمات وزخارف .. نحرما بيضا وأحلاما .. بهاء أو ألقا .. أنغام تنشق من غابات الروح .. تنبيه بين أزقة السرد وحفاوة الوصف (2) ..

في جمهرة الرغبة الدفينة للمتلقّي واحتشاد أحاسيسه تتجلى مهمة الانتقاء والفرز في إشكالية القراءة .. ويتحدّد على غرار الرغبة مسار الجهد القرّاني حيث التفاوت بين متنّلق وآخر صوب صرح كتابي / خطاب معروض / نصّ مدوّن .. هذا التفاوت المقصود يكرّس ظهوره واتجاه مساره أحران :
1 - ما يختزنه المتلقّي من ثقافة تمتد جذورها إلى باكورة القرّاء ات الأولى ، وإرهاصات مرحلة التأسيس القرّانية .

2 - استعداده لأن يمّسك عدّته ويغوص وصولا إلى لؤلؤة الرّجاء .
بيد أنّ ما يوصّد الأثنين - المتلقّي والآخر - ويضلل مساحة التفاوت المذكور بينهما هو النصّ المعروض .. فما هو هذا النصّ المؤدي للمهمّة ، الأخذ على كاهله رصف العيون ونماء الاستعداد للتواصل حتّى إدراك تخوم المنتهى ثمّ الخروج إلى رحاب الدهشة ؟!

بدء تستفزك هندسة الحروف المشكلة عنوانا (بادئ بدء النص / آخر أخباريات

لا نتشكك إن كانت دلالاته تتفق ودلالاتها المستنبطة .. من هنا حدثت الاختلالات فتهاوت هيكلته الثلاثية الجدلية : المرسل - النص - المتلقي . وبانت هذه الاختلالات سمة النأي عن قصيدته التوجه المنسكبة من خالق الخطاب / المؤلف ، المسبوكة سواء بانتاج دفق الشعور أو المشالة بالرفيف اللاشعوري .. هذه القصيدة التي كان الناقد التقليدي يبحث عنها كمفتاح لفهم النص حيث يحسبها البؤرة المركزية / الشفرة التي تدور حولها رؤاه النقدية ، ويحسب ناقدا ثاقبا حاد التفرس من يعبر بحور الكلمات وصولا إلى مرفأ فك النص .. وبهذا صار النص .. بمثابة ملكية لا تتدخل فيها ذات المرسل ، وصارت لنا حرية التأويل وإدراك الماهية .. أي أننا لم نعد نتعامل مع أنا الناص بقدر ما نتعامل مع أنا النص ، فتفجرت الذائقة وتنامت المخيلة ، ووسعت إزاءنا فضاءات القراءة وغيوم التأويلات .) بقيت الإشارة إلى أن الأقدام على قراءة النص والاحتفاء به تشكل إحدى مباحث اللغة المراوغة التي وظفت مفرداتها كعامل توريط للقارئ ، يغطي في هلام متعتها فلا يخرج إلا وهو مبتل برغاويها .. لغة ساقط الأحداث والشخص والصور ونقلتها من التخييل الذي يبدو واقعا إلى الواقع الذي يغدو حقيقة « معاشة » تقر بنجازتها فتتوهم بأن ما نقرأ يجري فعلا .. ومن هنا

يستحيل النص كأننا هادما لصقيع الغنائات الثلجية حاملا دفء التضاريس الاستوائية واعتدالها .. يزجك في تفاعل على ذاكرتي يميظ من خلاله التام الأماكن التي غمرت بها تهافتات الأحداث ووضيعتها مفارق الدروب ، وأخذها تيه الحياة الأيل إلى اللابلوغ ... برمجة الذاكرة تستعيد أشرطة الذكرى فتنهال عليك الطفولة بشلالاتها / بشمسوها / بشواطئها ومرافئها وفناراتها ومجساتها ، باصرتها المتوسدة في الأعوام الثمانية . وبدل من أن يلاحقك النص بفحواه ، ويرهق ذاتك بشقلهورتابته ، وتأسف عند المنتهى لزم من صرف في عبث وهباء ، ستجده المبتغى سائرا بأسطره يبتث شذى الرغبة في السبع تلاحقه بنزوعك وتدعوه للتماهي مع رفقته فيما يحفز فيك إرادة خلق حيث فلا يدعوك إلى القراءة المجردة . يرفض جعلك قارئنا حياديا . ولا يبيغيك أن تكون كمن يقف أمام لوحة على جدار يسقط عليها أنظاره لأجل متعة آنية ، وعذوبة ستزول سطوتها حالما يخلفها . أي اللوحة . وراءه لا يضربك من قدم هذا النص ، ولا كيف .. متى وأين .. سيكون الإحتفاء به وليد التعامل معه . (لقد أفادتنا النيوية بأن ضمّرت إسم المرسل وأبعدت هيئته من تشكيل الصورة التي تنبثق على ثرى أذهاننا لحظة القراءة وجعلنا

الهوامش:

- 1 - يَنَاطُ بِالِاسْتِهْلَالِ دور فائق في الإقبال على الممارسة القرآنية . فهو لفاتحة الجاهلة القادم برسوخ الاقدام وقوفاً إثباتاً لصلاية الأرض لا هشاشتها وهو بهذا يعد ثاني فتحٍ يعتمد النص للكسب .
- 2 - يعمل السرد على بناء سيروري يقود توجيه ذهن القارئ صوب قناعة تتنامى بغية تصديق ، يراققها شدً يولد جملة إستفهامات لما سيحصل ويجري ويؤول بينما تتخذ سياقات الوصف غرض تعميق الحدث المنشج صوراً .. والقدرة الوصفية هنا تعتمد على البراءة المنسكة على جسد الخطاب وصولاً لاستكمال عملية التصديق .

تتأني متعة القراءة الأولى التي ستؤول - تحت هيمنة سحرها - إلى قراءة آتية يكون فيها النص بشراً سرياً « يذمردية كلماضمتوا وأقبلوا على النيل من منهله .. لكن المتعة » هذه ستبتدئ « - طبعاً - شيئاً فشيئاً بعد عدة قراءات ، وسنكتشف بعد حين لعبة النص الذي أغوانا بعطفاته ، ودهاء اللغة التي أسقطتنا في حبالها .. غير أن هذا الإحتفاء بذلك النص سيبقى - الزمن طويل - ماثلاً ، ومتعة القراءة الأولى ستترك أريج فعلها نافذاً في مغازات الذاكرة ..



http://www.akhit.com في الأعداد القادمة

- تجريف الهوية العربية بفعل العولمة د . محسن خضر
- الإشكاليات الكبرى لمسألة :
- القضاء والقدر في الفكر الإسلامي عبد الجليل الميساوي
- مدينة المتلوي عبر التاريخ محمد العائش القوتي
- حوار مع الأستاذ : أحمد السماوي أجزته : سميرة الشمتوري
- هاجس التفرد في «ديوان النساء»
- للشاعرة جميلة الماجري بلقاسم برهومي
- صفحة من كتاب «السؤال» بلقاسم بن الهاشمي البكوش
- ضياع الياسمين : قراءة في قصيدة
- « تغريب الكلام » للشاعر سمير تهميش صلاح سعيد

ضياح الياسمين

قراءة في قصيدة «تغريب الكلام» للشاعر سمير تهيمش

بقلم : صلاح سعيد

الباحث عن إشباع حقيقة «الحاجات» الجمالية. لذلك أوك ما تواجهك في قصيدة سمير تهيمش «تغريب الكلام» الصادرة «بالصحافة» وتتملى مطلعها «كيف سنسبح من عباء تنا التي اهترأت أفقا لنرتحل إليه»

تظل تبحث عن معنى قد لا تدركه أوك وهلة أو قد تجده عند العديد من الشعراء وهو الإحساس بضائع الذات واهترائها في واقع بدأ يفسح موضعه لقوى غازية نافية للغيرية وهو كذلك البحث عن كيفية الخروج من هذا الواقع. فقصيدته «تغريب الكلام» تنقسم إلى قسمين يبدأ كل واحد منهما سؤال «كيف» وكل قسم يتكون من لحظتين : لحظة السؤال ولحظة تقديم الظرف الذي يبرر طرحه . فكيف سنسبح من عباءتنا .. أفقا

مادام الظرف يتميز بضياح الأحلام ونصاعة الحنين وعمق الجروح و«كيف سننبت وطننا» والواقع يتميز بالتآكل والأرض أمانها معلقة والروح مشتاقة لاكتمال الحكى .

الشعر ... ذلك المارد .. الذي أينما حل جعل الأشياء تتجاوز وهي متناقضة تتناقض وهي متجانسة في مناخ من الكلم حديث في بناءه ، يدب في لذته ورؤاه .

الشعر هو ذلك «الشذوذ البري» الذي يقطن مخيلتنا ويجعل كلامنا مجنونا بالحرية ، إذ الشاعر في لحظة رافضة يستل المحيط من الشبك فينتشر النسيج وفي لحظة خلقة يهني عالمه على نقطة ما خارج «الغام» وإذا كان الإنسان كما يقول ديكاوت شبيه بالآله من حيث إرادته اللامتناهية فإنه جري أن يكون شبيهه من حيث هو شاعر له كونه الخاص . وذلك ما تسعى إلى خلقه نصوص الشاعر سمير تهيمش وهي نصوص تشبه كثيرا العمارة العربية على مستوى تعدد مكوناتها واختلاف مصارها ولكنها مجتمعة تعطي طابعا خاصا يوحي بطول البحث وقدرة على البناء والتأليف . ولكن الناقد العليم بسر الخلق المتبع لتقنيات البناء قد يضع في متاهات المصادر ولن يشعر بالراحة التي يشعر بها القارئ «البري»

قليلة الإستعمال أو منسية وهوانزياح من درجة ثانية إذ بمجرد أن تصبح هذه الألفاظ مسارية الاستعمال حتى يفقد النص شعرته وقد دأب الشعر العربي منذ نشأته على البحث عن غريب اللفظ . أمّا أن نحدث الانزياح في اللغة العادية فذلك عدول من درجة أولى .

والبريق الثاني في هذه القصيدة هو إهمال المنطق للاحتفاء بالشعر إذ النصّ ماعاد معنيًا بتسلسل الانتقال وترباط الكلام فذلك اعتناء منطقي . إن المنطق هو إخضاع الكلام لسلطة المعنى أمّا الشعر فهو تحرير له من هذه السلطة .

أمّا البريق الثالث فأنّه وفاء النصّ بكلّ تلقائيّة لتراثه . فمادامت الحركة الأولى للنصّ تتساءل عن تحقيق الذات في واقع اهترائها فإنّ الجسراب هو النصّ نفسه ، إذ يبرّر في هذه القصيدة مقطع موشى بالقافية إنه التراث يبرز في بهاء الحداثة .

فيما يخصّ البريق الرابع فأنّه يتمثّل في تلك العودة إلى العضويّة الأولى :

لتعاود شهوراتنا الأولى

على صخر العراء مبللين

والقصيدة كلها تحاول أن تحلق مناخا بريئا ، طفوليا رعويا لكنّ الأهمّ من ذلك هو تواجد الصوّة الشعرية التلقائيّة ولا تكلف في حشو النصّ في كلّ مناسبة بالصور الشعرية النادرة .

فكأن حركة القصيدة مشدودة بسؤالها الذات والوطن ويجوابين ضمنيّين بالإستحالة لذلك يسعى القول نحو الإغتراب ، نحو الرحلة الطويلة وهو يبرّر عنوان القصيدة « تغريب الكلام » . إذ رحلة السؤال هي رحلة البحث عن الذات والوطن مثلما فعلت التغريبة الهلالية التي دفعتها الظروف القاسية لتأسيس الهوية العربية للبلاد التونسية ... فهذا النصّ يتخلّق من تفاعلات لفظيّة لا تستطيع إلّا أن تحقّق عبر الشاعرة بغية الكلام بنهاية طواف الذات في واقع الهجرة لتستقرّ في القصيدة مثلما انتهت « تغريبة بني هلال » بنهاية طواف القبائل في واقع اللائق لتستقرّ في تونس .

لكنّ المعنى ليس الهمّ الرئيسيّ للنصّ الشعري . المعنى قد يكون هذا وقد يكون غيره لذلك يفتح الأثر على تأويل ماعاد منفلقا على معنى واحد ظاهر . ماعاد المعنى حرفيا إنّّه باطني . إنّّه حضور كلّ المعاني وغيباتها . لكن وراء المضمون يقف النصّ على الرهوة مزهوا بنفسه ولنا ساعتها أن نتأمّل بهاءه لأنّه في كلّ مرّة يشعّ علينا ببريق خاص ما كنّا عرفناه منذ بدأ في تجليه نفسه .

لذلك فأوّل بريق لقصيدة « سميّر تهيمش » هو أنّها مكتوبة بألفاظ مأخوذة من القاموس المتداول وقدرة الشاعر تكمن في تغيير اللغة العادية إلى لغة شعريّة .

فالعدول قد نحدثه باستعمال ألفاظ منتقاة

حوار مع الأستاذ : أحمد السماوي



أجرت الحوار : سميرة الشمتوري

فقصيدة النشر فالكتابة الجديدة ومنذ أن بلغ الأدب العربي السبعينات بدأ الكلام على عقود وقالوا عقد السبعينات أو الثمانينات والتسعينات وهي ظاهرة تتم على أن القول بأن هذه الحقب لم تستكمل بعد نضجها بحيث لا يستطيع الناقد أن ينسب أديها ما ورد في هذه الحقب المتتالية إلى مدرسة بعينها اتخذت بعد شكلها النهائي فبعد قصيدة النشر تماما أصبح الكلام على عقود ولذلك إذا قيل اليوم شعراء التسعينات فعلى أساس أنه لم تتبلور بعد رؤية تشمل كل شعراء المرحلة سواء على المستوى الوطني أو على المستوى العربي بشكل عام .

س : 2. من البديهي أن لأحمد السماوي الطفل طموحات وأحلاما عديدة ما هي أحلامك التي تحققت وأحلامك التي ركنت هناك حيث الطفولة العذبة ؟

ج : 2. كثيرا ماكنت وأنا صغير أمني النفس

الأستاذ أحمد السماوي أستاذ بكلية الآداب بصفاقس ناقد أدبي اشتهر بدعمه للأدباء والمثقفين بأرائه القيمة وذوقه المتميز ، حاولنا إثارة بعض النقاط فكان لنا معه هذا الحوار :

س : 1. هناك سؤال طالما يتبادر للذهن في هذه الحقب والمرحلة من الزمن وهو يخص كلمة يتناقلها النقاد في بعض الأوساط الأدبية وأعني هنا « شعراء التسعينات » باطلاق اللفظة على الأشخاص وإنكار الشعر فلم هذا التجاهل وما ردك على هذه الظاهرة ؟

ج : 1. في الواقع ربط الشعر أو الإبداع الأدبي بصفة عامة بمرحلة أو بعقد من الزمن هي ظاهره حديثه ظهرت بعد أن استوفى مؤرخو الأدب ضبط المراحل الأدبية الكبرى التي عرفها الأدب العربي في القرن العشرين خاصة عندما تكلموا عن التقليديّة فالرومنطيقية فالشعر الحرّ

المعرفي الخاص بكيفيات الكتابة وبالأجnas
الكتابية المختلفة كي يصبح للإنسان قدرة على
أن يتمثل المعارف أولاً وعلى أن يصبح بإمكانه
أن يضيف إلى ما تلقاه إبداعاً وخلقاً .

س : 4. أهم المراحل التي يجب أن يتخطاها
المبدع كي يصل إلى مرحلة الإبداع ؟

ج : 4. يبدو لي أنه إذا ما تسنى للمرء أن يقرأ
الكثير ليهدم هذا الذي قرأه من ناحية . الذي
قرأه إبداعاً وتنظيراً بإمكانه أنذاك أن يجرب
ولكن التجارب الأولى في معظم الأحيان حسب
كثير من التراجع الشخصية للأدباء هي للقاء
جانباً . عادة ما يلقي الكاتب في بداية عهده
إلقاء النواة ما يبدعه ولكن ذلك لا يعني وجوباً
أنه لم يفلح في المرة الأولى نجاحه في المرة
العشرين إذ قد تبدو بعض النصوص المكتوبة
في البداية جميلة راقية وقد لا يصل إليها عندما
ترسخ قدمه المهم بصفة عامة كسي لا يجابه
الكاتب أي إن كانت عملية الإبداع التي
فيها هو يصنف خيالات الظن المتكررة
يحصل به أنه كلما قرأ وكتب وقدم ذات الذي
يكتبه لبعض ممن يستشيق فيهم كي يبدوا آراء
هم فيها علمهم بذلك يزيدونه تشذيباً وتشقيقاً
وكلما كانت قدرته على قبول آراء
الآخرين كبيرة كانت قدرته على أن يتجاوز
الصعاب والسلبيات في المرات اللاحقة وهذا
هو مدار الإبداع حسب تصوّري .

س : 5. علاقة المبدع والمثقف ، آفاقها ،

بأن أصبح كاتباً يوماً ما لأنني كنت شغوفاً
بالقراءة وكانت نيتي أن أبلغ يوماً ما شأناً في
الكتابة يؤهلني كي أكون شبيهاً بالأدباء الذين
تعلمت عليهم وقرأت لهم الكثير في منتصف
القرن العشرين ، وفي أواسط الستينات تقريباً
بدأت تتشكّل لدي رغبة في أن أكون يوماً ما
كاتباً ، ولأنني لم أصل لتحقيق هذه الرغبة في
أن أكون كاتباً مبدعاً شاعراً أو روائياً أو
أقصوصياً فأنني على الأقل كنت كاتباً
وأصبحت كاتباً في مجال النقد والدراسة
والبحث العلمي ومثل هذه الكتابة ليست بهيئة
لأنها وإن كانت من حيث الكم نزره فأنها من
حيث الكيف تتطلب مجهوداً ما قبل الكتابة
كبيراً جداً .

س : 3. ماهي شروط الإبداع على المبدع ؟

ج : 3. كي يكون الإنسان مبدعاً لابد أن يكون
قد قرأ الكثير الكثير والقراءة كلما تعزّزت
وكثرت تخمّرت في أعماق الإنسان وكانت سبباً
يوماً ما في أن تظهر للعيان نتاج هذه الحميرة
التي تخشرت عبر الأزمنة وما من كاتب في
التاريخ إلا وهو كثير القراءة سواء أن كان في
كتابة الشعر أو النثر سيات في ذلك الأمر لكن
المطلوب هو أن تكون القراءة للذة أولاً وللتمرّس
بالكتابة ثانياً إذ قد لا تكفي عملية القراءة
وكثيرون هم الذين قرؤوا الكثير ولكنهم لم
يصبحوا مبدعين . إنمّا المطلوب فضلاً عن
القراءة الكثيرة أن يكون هناك نوع من التكوين

شروطها وكيف يراها الأستاذ أحمد السماوي ؟

ج : 5 - إنَّ المتقبَّل بصفة عامَّة وهو ينهل مما نهل منه الكاتب نفسه إذ لا يدخل أي متقبَّل على أي نصٍّ أبدعه كاتب ما وهو خلو من المعرفة وهو خال من التكوين والثقافة ولذلك عندما يدخل كاتب على مادةٍ خامٍ هي اللغه يريد أن يشكِّلها بطريقة ما تصبح معها نصًّا فإنَّ الذي يتقبَّل هذا النصَّ هو بدوره له من التكوين والمعرفة ما به يدخل على نصٍّ بعد جاهز وهذا النصُّ الجاهز هو الذي سيتعامل معه إن سلبا أو إيجابا سيشهد منذ اللحظة الأولى أنَّ أذنه تستسيغ هذا الذي يقرأ ولا تستسيغ تطرب لهذا الذي يسمع أولا تطرب ، ومتى رأى في نفسه نوعا من القبول لهذا الذي استساغته أذنه ورضي عنه ذوقه فأنه إذا ما شرَّح ذلك الذي قرأه بعين ثاقبة ويتأنَّ ويتروَّ وأمكنه أن يحكم للعمل أو عليه ويكون بذلك ناقدا ليس من الضروري أن يخرج نقده ليقراءه الناس وإنما يكفيه أن يكون بينه وبين نفسه قادرا أن يقول قولا قد يكون في بعض الأحيان فصلا بشأن نص من النصوص والمتقبَّل إن كان على مستوى التمثيل الأوَّل للنصِّ قابلا وإن كان على المستوى الثاني مشرِّحا معقِّبا فأنه إذا ما جمع ما بين هاتين الحصلتين فأنه بإمكانه ألا تكون أحكامه جزائفا وبإمكانه أن يكون لأقواله نوع من الأصداء ليس من اليسير تجاهلها حتَّى ولو كان غمرا غير مشهور ولا معروف .

س : 6- كثرة الشعراء في تونس هل تعتبرها ظاهرة صعبة وماذا توحى إليك ؟

ج : 6 - للأسف رغم أنَّك ذكرت أن هناك كثرة كثيرة من الشعراء فأنِّي لست من الذين يطلعون باستمرار على ما يكتبه هؤلاء الشعراء أو لينقل هؤلاء الذين بدأوا يمارسون التجارب الشعرية لأنَّه لكلِّ واحد من هؤلاء الذين يريدون أن يسموا شعراء الحق في أن يكتبوا وأن يجرِّبوا علَّ الحظ يسعفهم في أن يكونوا يوما ما شعراء حقيقيين ولكن ليس من الضروري أن ينظر إليهم الدارس خاصَّة من كانت علاقته وثيقة بالنصوص الكلاسيكية التي رسخت عبر الأزمان ومن أولئك الذين يشرحون النصوص ويتعقَّبونها ليس من اليسير أن يقول هؤلاء قولهم في مثل هذا الشَّعر الذي يخرجهم هؤلاء الشعراء الجدد . لكن أن يسرع الشعراء إلى نسبة الشعر إليهم وهو في الحقيقة مازال بعيدا عنهم أشواطا وأن يتسرَّعوا في نشر كل ما يبدعونه حتَّى ولو كان الأمر متعلِّقا بقصيدة فريدة أو يتيسمة فانه يكون في ذلك نوع من التعجُّل ضارَّ بهم وبما يمكن أن يكون من شيمهم أمَّا عملية التمسك بأنَّه أصبح شاعرا وبأن قوله ليس يقلُّ عن قول شعراء كبار مهما تكن جنسياتهم فأنه بذلك يضُرُّ نفسه أولا ويضُرُّ بالشعر ثانيا والشَّعر في الحقيقة لا يضُرُّ به لأنَّه سيلفظ مثل هؤلاء المدَّعين قول الشعر والشعر منهم براء

س : 7- نصيحتك إلى الأدباء الشباب أستاذ أحمد ؟

ج : 7- والله ليس من طبعي أن أقدم نصائح رغم أنني مربٍ ولكن الذي أقوله هو أن محك القيمة الفنية التي يمكن أن يكون عليها نص من النصوص أي كان صاحبه متدرجا في بداياته للكتابة أو راسخة قدمه ، فإن المطلوب منه أن يعطي أذنه للآخر ومتى أعطى أذنه للآخر وكان قابلا أن يقال فيه الإيجاب والسلب وكان قابلا أن يهدم ما ينتج عن التشريح والتعليق والإبداع الإيجابي والسلي فأنه يكون بذلك أهلا لأن يكون شاعرا حقا أو أديبا حقا . أما إذا كان مصمما أذنيه عن الاستماع للآخر رافضا أن يقال فيه قولاً مهما يكن طفيفا براء هو جارحا فأنه لا سبيل أن يرتقي في مصاف المعرفة وأن يبذل شيئا يرضى عنه

بقية قصة : يا حدود أصابعي : ص 86

فم الحوت المفتوح .

امتدّت يدي إلى كتف رفيقي تكظم ،
تحملق في الظلام ، تتمدد ... ورأيت حدود
أصابعي .

(1) الوكالة : تعبير عامي عن مأوى بمقابل ، أقل
درجة من فندق شعبي
(2) تعبير عامي : لا تقل إن حالي تعة

امتدّت رؤوس صحبي تتصاعد نحو
السّارة ، حالكة مستكنة .. وامتدّت أمامي
خرفاني تموجا ، تشغو منتشرة في الزّربية ،
تحاصرها الحواجز الشائكة ، وعلامات التقاطع
تنتشر على ظهورها ، تقاطع اليد والسيف ،
تقاطع الرقية والسكين ... واستبدّت بي رغبة :
أن أحرك أصابعي ، أن أمزق بدلتني وأخرج
منها ، لكنّ الأيادي ورائتي كانت تدفعني نحو

ديوان "اقتراح القريح واجترح الجريح"

أو لزوم ما لا يلزم

- 2 -

فوزي الماجري

III - المضمون

وهذان التعريفان يبخسان غرض الرثاء قيمته فهما يعرفانه انطلاقاً من علاقته بغرض المدح ويجعلانه فرعاً من فروعه، فلا فرق بين الغرضين حسب هذين التعريفين سوى إضافة بعض الألفاظ للتفريق بين المدح الحي والمدح الميت.

رأينا أن تطرق الغرض موضوع دراستنا من التعريف به والنظر في ما تقره المنظومة الشعرية الرثائية .
ثم أن تلج لب الديوان لبيان تجليات تمييز شعر الحصري .

I - ماهية الرثاء :

وهذان التعريفان أغفلا بنية كل غرض منهما، فالمدح يتكون من ثلاثة أقسام : أولهما قسم غنائي (النسيب) والثاني قسم وصفي (الناقة والصحراء) والثالث هو الغرض وهو المدح أو الفخر. بينما استقلت المراثية بنظام ثنائي قوامه التجديد (التأبين) والتنجع وهما مترابطان لا انفصام بينهما في المراثية .

يعرف ابن رشيقي الرثاء في علاقته بغرض المدح فيقول : ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شي يدل على أن المقصود به ميت مثل ، [كان] أو [عندما به كيت وكيت] ليعلم أنه ميت (16). وقد سار على منوال قدامة ابن جعفر في نقد الشعر حيث يقول: إنه ليس بين المراثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل (كان) و(تولسى) و(قضى نحبه) وما أشبه ذلك (17) (نقد الشعر ص 111) .

ولئن لم تر المنظومة الشعرية القديمة في الرثاء غرضاً مستقلاً بذاته لعدة أسباب منها قلة المراثيات قياساً إلى المدحيات ونبوع صيت الشعراء الجوابين مادحي الملوك والأمراء مقابل اكتفاء بعض الشعراء بعدد قليل من المراثيات

اقترح القريح واجترح الجريح إذ تتبدى لنا في كل بيت حرقه الشاعر ولوعته خصوصا وأنه عايش أطوار مرض الصبي ورأى الموت يدب في كل عضو من أعضائه دون أن يستطيع إلى دفعه سبيلا . فصور كل ذلك في أدق جزئياته إذ حدد (أ) تاريخ وفاته بدقة فقد توفي سنة خمس وسبعين وأربعة مائة للهجرة (475 هـ) وهذا ما يوضحه البيتان التاليتان :

وإذ صح أن خمس مميء ما

يلبث المصطفى دفيننا فوشك

ما البواقى منهن إلا ثلاثون

وخمس وليس في البعث شك (19)

فقد حدد سنة وفاة الابن قياسا إلى سنة وفاة الرسول (ص) (500-35=465 هـ=10+ هـ 475 هـ (من الهجرة إلى وفاة الرسول)). وليس باعتبار التاريخ الهجري فكان حدث موت الابن يقارب في هوله حدث موت الرسول(ص). وحدد الحصري شهر الوفاة وهو شهر آب أو أوت إذ يقول :

غاب في آب عن مصلاه مضنى

فتفاءلت طامعا أن يؤوبا (20)

فقد اشتد به المرض في شهر آب حتى اضطر إلى التغيب عن أداء صلاته في المسجد الجامع ولم يطل به الأمر حتى وافته المنية في الشهر ذاته.

تقال في مناسبات نادرة إذ دواعي المدح كثيرة ودواعي الرثاء نادرة، فإن بعض الشعراء غلبت مراثيتهم على ما سواها من أشعارهم .

والدواوين الشعرية وكتب المختارات خير شاهد على أن الخنساء لم تكن لتذاع؟ شهرتها ولم يكن لشعرها أن تتناقله القوافل والركبان لو لا مراثياتها في أخيها صخر ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى أبي نوبس الهذلي في رثاء أبنائه الخمسة الذين ماتوا في الطاعون .

ولسنا في مجال استعراض كل شعراء الرثاء وإنما سنطوي صفحات التاريخ لنقف عند الشاعر الحصري الذي دعانا إلى استنباط مميزات شعره بفضل الأسلوب الشيق الذي أخرج فيه مراثياته وبفضل القدرة الفائقة على التعبير عن مشاعره . فقد جاءت سنة خمس وسبعين وأربع مائة للهجرة (475 هـ) لتحدث انقلابا عظيما في نمط حياة الحصري وفكره فلم يعد ذلك الشاعر المداح الذي تنافس ملوك الطوائف من أجل ضمه إلى بلاطهم ولم نعد نسمع من فيه تلك الغزليات الرقيقة، إذ جاء حدث الموت ليلجم لسانه إلا عن الرثاء والبكاء.

2 - مظاهر التفجع :

يقول ابن رشيق : الرثاء يجب أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مشيرا للتبريح(18) وهذا ما نشعر به عند قراءة ديوان

تألفت عليه لتجعل منه ضحية أو كبش فداء يوم عيد الاضحى من سنة خمس وسبعين وأربعمائة للهجرة (475 هـ) .

ب) وهذه الأسباب منها ما هو ظاهر مباشر ومنها ما هو نفسي ومنها ما هو خفي : أما السبب المباشر والظاهر لوفاة عبد الغني فهو لطفة تلقاها من أخيه الأكبر على مستوى الأنف سببت له الرعاف المتواصل فغضب الحصري على هذا الابن العاق وأطرده طردا نرى عباراته منثورة في قصائد الديوان من مثل قوله :

يا ضارب البدر أقسم

ت لا وطنت بساطي

كما سطوت على ابني

انذهب بليت بساط (24)

إذا أطرده من المنزل ودعا عليه بأن تصيبه داهية عظيـمـة .

والملاحظ هنا أن مسألة الثأر ما زالت حاضرة رغم غلبة النفس الاسلامي، إذ التفجع في المراثيات الجاهلية كما يقول رجبس بلاشير يكون متبوعا بالتوعد والدعوة إلى الثأر لكن الحصري استبدل مسألة الثأر (وهي عادة ما تكون بين الأبهدين والأعداء) بطرد ابنه العاق والدعاء عليه وحرمانه من الميراث .

والسبب النفسي لصرع عبد الغني هو فرقة الأم وفرارها لتستبدل زوجها الضيرر وابنها

وحدد يوم الوفاة ويوم الدفن إذ توفي يوم الجمعة وقد كنى عنه بيوم العروبة ودفن يوم السبت :

وكأنه يوم العروبة موثق

ويوم السبت يوم فداء(21)

وقد صادف يوم وفاته يوم عيد الاضحى فبدا له أن التضحية كانت بابنه ، فصوره ابنه والدعاء تسيل من أنفه تماثل صورة كبش الفداء، يوم عيد الاضحى وهو ما أورثه الحزن كلما عاد العيد :

بالله يا عيدا تبسم للورى

لا تلقني إلا وأنت عبوس

هل عادة المشتاق ليلة عيده

وصباحه الا بكا ورسيس(22)

وحدد سن وفاته وهو تسع سنوات وأربعة أشهر :

زكا ابني في تسع وأربعة له

ولم أرك في خمسين عاما ونيف (23)

وقد ردد عمره عند الوفاة في كل القصائد وقارنه بغيره من العظماء من أمثال نوح عليه السلام الذي عاش ما يقارب تسع مائة (900) سنة .

ولأن لكل نتيجة سببا ترجع إليه وعلـة، فان وفاة عبد الغني كانت لها ثلاثة أسباب

الصغير بشاب يريري غني :

نهكته علة مبدؤها

وحشة الأم متى تذكر تشق (25)

وقد ادعى الشاعر أن تأثير فراق الأم اقتصر على
الابن :

إلى أن جرت فرقة فلم أكرث وأكرث (26)

لكنه في الواقع شمل كذلك الكهل الضريع
الذي كان في أشد الحاجة إلى من يساعده.
ولعل هذا ما زاد في حرقته إذ مات الابن الذي
كان يعتمد عليه في حله وترحاله بعد أن هجرته
زوجته فأصبح بذلك وحيدا لا أنيس له في بلاد
الغربة .

وأما السبب الخفي فيو العين الحاسدة إذ
يرى أن ابنه بلغ مرحلة الكمال الانساني وهو
بذلك عرضة لحسد الحساد . وقد كان يخاف
العيون وحاول حمايته لكنها كانت أحد من
السيف البتار .

رمتك سهام العين والله أنفذا

وما أخذت حتى قضى فيك مأخذا (27)

وهو يشبهه وقد أصابته العين بالنبات الذاوي :

خفت العيون منذ غرسته

فئوى كان لم يثمر المغروس (28)

وهو يرى أن جهوده لحمايته بادت بالفشل
فقد كان يخشى أن يلحظه الناس وبلغ به الأمر
حد منعه من الذهاب الى الكتاب لكن عين

الحمود أصابته بسهامها التي لا مفر منها :

ولقد صنته وأمسكت عن كتنا

به خوف أن يعان دؤوبا

فاذا العين أثرت فيه من قبـ

ل لكي يظفر العدا وأخيبا (29)

وبذلك اجتمعت هذه الاسباب الثلاثة
لتجعل من مصرع عبد الغني أمرا محتوما لا راد
له وأقوى هذه الاسباب هو العين الحاسدة وهو
سبب تقليدي جرى فيه الحصري مجرى
الشعراء الأقدمين ، فشكوى الحساد لم يبتدعها
الحصري بل اتبع فيها سنة شعرية متبعة من
قبل. وهذه الملاحظة تقودنا إلى استنتاجين اثنين :

أحدهما النخر والتغني بما وصل إليه الحصري
وابنه حتى غدوا رمى العيون إذ لا يمكن أن
يحسد إلا من كان في مرتبة أعلى من غيره.
والاستنتاج الثاني هو أن الحصري أبدع في
الاتباع إذ تكرر شكوى الحساد في كل القصائد
من غير أن يشعر القارئ بالملل ففي كل شكوى
من شكواه نشعر بمعنى جديد ينساب بين
الآيات. ولعل من أهم معيزات مراثيات الحصري
هو أنه فصل :

(ج) أطوار مرض الصبي ووصف حاله وإياه في
كل طور من أطوار مرضه إلى حين وفاته. إذ نقرأ
الديوان فلا تخلو أي قصيدة من ذكر أثر اللطمة
التي نالها الصبي من أخيه الأكبر، بل إن

وأراني قمرى كيف انمحق

أطفأ السقم برغمى نوره

ورعاف كلما كف اندفق

فكلانا في دم مشتخط

فإذا يعرف أبكى بالحرق

أذبيح أم جريح وجهه

فأديم الحسن منه مخترق

أم سقيم عبث السقم به

وتلاشى لحمه والجلد رق (33)

ويختتم هذا الوصف بتصويره في الرمح الأخير :

والملاحظ أن الحصري ذكر عدة تفاصيل

وجزئيات عن مرض ابنه مثل اللطمة التي تلقاها

من أخيه وفراق أمه عنه ووصف وصفا دقيقا

تأثير المرض في ابنه قبيل وفاته، فلم تحط تلك

التفاصيل من شعره بل ذكت نار الحرق في

نفسه وألهبت مشاعره فجاءت مراثياته شاجية

الأقويل ميكية المعاني مثيرة للتباريح نسمع

فيها أصوات البكاء والنواح إذ هو يبكي

ويستبكي فيزيد في إيقاد حر فؤاده :

بكيت مستقيا حين جرى

فلم أزد نار قلبي غير تأريث (35)

ويفيض دمه حتى ليضاهي الطوفان في غزراته:

فاض جفني بما أفضى الى يام (36) فيسقي

الارض "تذبت من أدمعي الربى" ويحرق النبات

الحصري أبدع في تصوير حال ابنه وهو بين يديه

يتلوى ويشكو مصابه وتجري الدماء من أنفه

فتمتزج بدموع الشاعر فهما منصهران تمام

الانصهار وهذا ما زاد في تضخيم الفاجعة، إذ

هو يصور امتزاج دمايهما فيقول :

ذبيح ظل منه دم ولم يقطع له ودج

رأيت دماءه و دما ء عيني كيف تمتزج

ولم تقطر فرادى بل هريقت وهي تزدوج

فلو لا موته لجرت من الدم بيننا لجح (30)

وبين فشل محاولات إنقاذه إذ حاول

إيقاف سيلان الدم من أنف الصبي بواسطة

الرقية فلم ينجح لأن ملك الموت كان في انتظاره.

رقيتك يا ابني والحمام مقدر

إذا جاء لم تنفع رقى كل مدنف (31)

وهو يرى أن ما أصابه داء أعيا الحكماء

والأطباء :

ألح عليه ما ألح بنوره

وأعيا حكيمًا أن يجيب بأحرف (32)

فلم يبق أمام الشاعر سوى الرضى بما قدر له

وتتبع حال الصبي وقد هذه المرض وشحب

وجهه واستحالت حمرة خديه صفرة فاقعة

فيصور ذلك في ثبرة حزينة باكية :

قطع الضر أمامي كبدي

وعد الله ببرد المسترق

ثم وفاه برجى يوسف

والأخ المظلوم إذ قيل سرق

وإذا يحزن من يرجو المنى

فألذي استيأس بالحزن أحق (41)

ولئن كان العيد يعود في العادة كل عام
بالأفراح والمسررات فإن للعيد مفهوما مناقضا عند
الحصري إذ هو لا يرجع عنده إلا بالأحزان
والأتراح إذ شاء القدر أن يموت الصبي يوم عيد
الاضحى من سنة خمس وسبعين وأربع مائة
للهجرة (475 هـ) وقد سالت الدماء من أنفه
حتى تلطخ بها فبدا للشاعر أنه كبش فداء مما
ضاعفت من أجزائه حتى استحالت نظرتة إلى
الحياة قائمة :

أبدلت يا عيد عيني حام من سام

ففاض جفني بما أفضى إلى يام

قد كنت هيمان مهموما بلا جلد

فزدت ضعفين في همي وتهيامي

عهدت ليلتك البيضاء نيرة

فمالها كحلت عيني بإظلام

حتى تناسيت ما عودت من فرح

وقبح يوم ينسى حسن أيام (42)

فيعجز عن الصبر ويندفع في البكاء المر كلما
ترأت له صورة ابنه مخرجاً بدمائه يوم عيد

لشدة حرة "تحترق الأرض والنبات" (37).

وعلى عادة الشعراء البكائين يقيم الحصري
حوارا بينه وبين اللاتمين يؤكد فيه البكاء
المستمر :

لاموا فقلت البكاء فيه

راحة ثكلان ساء حالا (38)

بل إنه قد يرمي عذاله بالهذيان ويغفل لهم
القول ليخرج بأن لا شفاء له إلا بالدموع الغزار :

يا لائمي في بكائي أقصر فإنك هادي

تالله مالي شفاء إلا دموعي هذي (39)

وليس الشفاء عند الحصري متعلقا بذهاب
الحزن عنه بل بازدياده ومضاعفته إذ المفاجأة
ضاعفت حزنه فاتخذة لباسا وخليلا :

ذرني فاني اتخذت حزني

إلفا ولم ابغه اتخانا (40)

بل إنه في ضرب من المقارنة رأى نفسه أحق
بالحزن والبكاء من النبي يعقوب . فلئن بكى
يعقوب ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه فانه
استرد بصره وعاد إليه ابنه بعد أن كاد يفقد
الأمل بينما فقدما الحصري إلى الأبد :

قد بكى يعقوب حتى ابضقا

حزنا عيناه بالدمع الغدق

وشكا البث إلى الله وقد

النحر :

خرج الشاعر يحزنه من الذاتي إلى العام
المشترك إذ أن هذا الصبي لم يتكله الشاعر فقط
بل تكلته جميع المخلوقات . ولا عجب أن
يحدد تاريخ وفاته بالقياس إلى تاريخ وفاة
الرسول صلى الله عليه وسلم فكما أن موت
الرسول مصيبة عظمى فكذلك موت هذا الصبي
فقدانه كارثة عامة رزئ بها الجميع إذ بكى
الشاعر فتداعت له الغواني يبكين مصابه :

نحت مع النائحات حتى

قيل استوى الحبر والغواني (47)

واجتمعت حوله النسوة يرددن ما يقول وكل
واحدة منهن تشعر بأنها هي التكلية :

خصصت هذا المصاب وعم كل

فربات الخيام ينحن ثكلا

عليك معي وربات الخصوص (48)

وخرج الشاعر من الجوار القريب ليجعل الحزن
قاسما مشتركا بين الفهريين جميعا، وفهر هي
بطن من بطون قريش :

قد بكتك ففهر معي

يا ابن قطب مفخرها (49)

قد ساء ففهر فيك ما ساءني

فنحن في رزئك أشراك (50)

فكيف الصبر أم كيف التعزي

ومن عرنيته ولدي ذبيح (43)

إذ كان يستبطنه مقدار ما يرتد طرفه فأنى له أن
يصبر وهو موقن : أن ليس يدنو بعدها شطا (44)
وهذا اليتيم بعدم عودة المقبور يدفع به إلى تمنى
الموت واللاحق بابه :

وددت لو مت يوم قالوا

غصنك يا فرع فهو ذاو (45)

إذ ما فائدة الحياة لشيخ ضريع فقد السند
وفقد آخر أمل له في الحياة بعد هجران زوجته
له حتى أضحي بيته كالعرين بلا شيل وأصبح
مطمع الطامعين . وقد بلغ الشاعر درجة من
الحزن تساءل الناس إزاءها من المرزوء حقا هل
الرائي أم المرثي ؟ :

بحت بسر الأسى فقالوا

نحكك يقضى أم النحيب (46)

وهو سؤال يدفعنا بدورنا إلى التساؤل من هو
الأحق بالرثاء والتفجع هل الشاعر أم الابن ؟
وأيهما المأسوف على ما به هل ذاك الصبي ابن
التاسعة أم ذاك الشيخ الضريع ؟ من هو الأجدر
بالأسى عليه هل ذاك الصبي أم ذاك الشيخ
الذي بكى واستبكى فرددت السماوات والأرض
وجميع المخلوقات صدى بكائه ؟

وقد جاء موت عبد الغني ليحدث تحولا
جذريا عند الشاعر في سلوكه وفي موقفه من
الحياة فبحلول الموت في داره لم يعد المصري
ذاك الشاعر الغزي الرقيق الذي أمال إليه قلوب
العذارى ولم يقدر أن يستجيب لدعوات ملوك
الطوائف قصد مدحهم :

إن تأبينه الذي هو بأبي

حرم المدح بعده والنسيب (56)

إذ مات من كان يرتحل من أجله فبطل سبب
تجوابه بلاطات الملوك والأمراء ولم تبق له غير
المراثيات يبكي فيها رزاه ومصابه :

ثكلتي عليك استماح عيني

وملأ الكتب بالمراثي (57)

وهذا التحول ليس على صعيد الشعر والأدب
فقط بل شمل كذلك العلاقات الاجتماعية، إذ

أن حزنه العميق لم يترك للهو عنده مجالا :

لم أله بالحسنة مذ أودى ولم تلقه بي (58)

بل إنه كره النسل والانجاب :

لا أحب النسل بعد ابني ولا

تطمع الحسنة مني بالعشق (59)

ولعل هذا الإعراض عن ملاذ الحياة ومقتضياتها
هو بداية لرحلة جديدة هي رحلة الزهاد :

زاهد في الحياة أفضل عند الله

مما يكون فيها رغيبا (60)

وهكذا تتجلى لنا حرقه المصري ولوعته

بل وخرج بالفاجعة لتشمل كل العرب ممثلين في
قبيلة نزار ، ونزار هو جد العرب :

لو كنت تغدي لكانت

لك الغداء نزار (51)

ويبدو أن المصيبة انتشرت حتى شملت الأعداء،
إذ العدو هو من يستغل كل فرصة سانحة للنيل
من خصمه ، ولكن ما حل بالشاعر هذه حتى
رق له الأعداء :

أنا أبكي ملئ جفوني والأعاء

دي متى بكيتك يبكوا (52)

ولعل الطرافة في قسم التفجع تكمن في خروج

الفاجعة من العاقل إلى غير العاقل، إذ أسقط

الشاعر ما بنفسه على عناصر الطبيعة فبكيت

الأرض والسماء معا لبكائه :

وبكيت السماء والأرض ثكلا

فالتقى الغيث والدموع السجام (53)

واهتزت الجبال لما به :

زلزلت الأرض لما بي

واهتزت الشم لاهتزاي (54)

بل إنه مائل بين هلاك ابنه ويوم الحشر الذي

تختل فيه موازين الكون فقال في سؤال انكاري

يكشف هول المصاب :

وكيف مت ولم يش مل النجوم إنكار

ولم تسير جبال ولم تعطل عشار (55)

تبدو مكانة الصبي في مجتمعه وفي نظر والده وهو الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره ؟

3-التأبين: رسم صورة الرجل الكامل:

يبدو أن الحصري واع تمام الوعي ببنية مريثاته ، إذ نراه يلمح تارة ويصرح تارة أخرى عند انتقاله من قسم إلى آخر . إذ نجده في بعض القصائد يذكر لفظ التأبين صراحة عندما يزعم الانتقال من التفجع والبكاء الى التمجيد والتأبين ، وهو ما لم نألفه في المراثيات العربية. فهو في القصيدة الخائية يضرب عن التفجع والبكاء ليشرع في التمجيد والتأبين فاصلا بين القسمين ببيت التخلص هذا :

فناديت القريحة أبنيه

فقالت نعم ما اقترح القريح (61)

وهو يستزيد من التمجيد في البيت السادس عشر (16) من القصيدة الخائية إذ يقول :

زد وأبنه يا فمي أمل ما شئت ينسخ (62)

بل إنه يبرز مكانة التأبين عنده مقارنة بالأغراض الأخرى :

إن تأبينه الذي هو دأبي

حرم المدح والنسب (63)

والتأبين هو إطلاق صفات محمودة على المدوح الميت إذ تأبين الميت إنما هو بمثل ما

في أشد مظاهرها، فمن أهم معاني التفجع عنده: البكاء المتواصل والجزع والهلع والعجز عن الصبر وملازمة الحزن له والزهد في الحياة وتعني الموت. وكل هذه المعاني تدخل ضمن الأثر الذاتي لموت الصبي في والده .

ولكن الشاعر خرج بهذه الفاجعة مما هو ذاتي محدود إلى الآخر ليجعلها عامة مطلقة فشاركته المخلوقات جميعا وعناصر الطبيعة مصابه. وهذه المعاني وإن فصلها الحصري تفصيلا فليس هو أول من طرقها بل كان مبدعا من خلال سنة شعرية متبعة. ولكن وجه الطرافة وجه تميز هذه المراثيات هو أن الحصري لم يقتصر على بيان أثر الوفاة فيه بل إنه عايش أطوار مرض الصبي لحظة بلحظة ونقل ذلك في نبرة حزينة وذكر أسباب وفاة ابنه على كامل صفحات الديوان . وهذه الجزئيات والتفاصيل لم تحط من شعره بل سمت به إلى مصاف الأدب العالمي.

وتحسب أننا نرى أن نظم ديوان بأكمله في رثاء شخص واحد ليس بالأمر الهين وهو يعبر إضافة إلى مقدرة الشاعر، عن مكانة المراثي في مجتمعه وفي نفس رائثه. وهذا ما يلح علينا بطرح السؤال التالي : ما هي هذه الصفات والفضائل التي ستفتقد وتضمحل بفقدان المراثي ؟ وكيف

وصف بما وصف به الفقيده من ملامح الجمال
غير النبي يوسف :

وأما الصفات الخلقية فعديدة ومنها حسن
الخلق والسلوك والتعفف عن فعل سوء إذ :

مضى وهو لم تكتب عليه خطيئة

ولا بيديه بل هو احتمل الأذى (68)

إضافة إلى البر بالوالدين :

يا شبيها وسعيا لأبي

كنت برا بي إذا غيرك عق (69)

وملازمة الكتاب وحسن تلاوة القرآن :

حريص على الذكر مصغ له

إذا نام أترابه استيقظا (70)

والوفاء إذ : له في كل موعدة وفاء

إذا ما كان إخلاف لوائي (71)

وحسن الطبع : كرم طبعاً وطبت نقداً

فأنت كالمسجد السبيك (72)

والحلم والوقار : رشدت قبل اكتمال عشر

وازدنت بالحلم والوقار (73)

حتى شبيهه في الحلم بأحفن بن قيس

التميمي وهو من مشاهير حلماء العرب . ولعل

هذه الصفات التي تجمعها خصلة العفة هي

الصفات الوحيدة التي يمكن أن يوصف بها

الأطفال . لكن الحصري لم يقتصر على هذه

الصفات بل أضفى على ابنه خصلة العقل

كان يمدح في حياته (64). وهذه الصفات

مندرجة ضمن الخصال الأربع (العقل الشجاعة

العدل العفة) التي أجمع النقاد العرب على أن

الموصوف بها جميعاً هو الذي توفرت فيه صفات

الكمال .

والعفة هي إحدى هذه الخصال الأربع وهي

تشمل في الديوان صفات خلقية وأخرى خلقية

سلوكية : أما الصفات الخلقية فيجمعها لفظ

الجمال أو الحسن، إذ يبدو الصبي حسن الصورة

شبيها بالبدر والغزال :

كان عبد الغني روضاً من الحسن

ن محلى بعسجد وفلز (65)

ووضي الوجه طلقه مماثلاً للكائنات الثورية إذ

النور الذي يملأ الكون هو قيس من نور وجهه

حتى استحال ظلمة القبر بحلوله فيه ضياء :

ظلمة القبر من محياك نور (66) وقد شبه جمال

صوته بصوت النبي داود الذي أعطي من حسن

الصوت ما لم يعط أحد قط ، وشبه بالزهر في

طيب الرائحة حتى أضحى تراب القبر العفن

مسكا : وثره من طيب رياه مسك (66) .

وكل هذه الصفات الخلقية كانت مبعث

عجب الناس :

ذهب الذي كان العباد إذا بدا

وقنوا عليه عيونهم وتنزهوا (67)

فجماله يوسفى إذ لم نعهد أحداً من البشر

كان مقصد الكبار من أهل زمانه يستشيرونه في
ما يطرأ عليهم من حوادث الزمان :

وما كملت له عشر ولكن

به الكبراء في الشورى تراضى (78)

وكان قادرا على أن يخمد جذور الفتنة بين
معاوية وعلي بفضل تحكيمه العادل إذ :

لو كان في صفين إذ هو يافع

تراضى به الخصمان والحكماء (79)

ولعل أهم خصلة يمدح بها الرجال هي
الشجاعة والقدرة الحربية، وهذا ما يتبدى
لنا في الديوان، إذ رغم أن هذا الصبي مازال
أعجز من أن يحمل السيف فإن الحمري أضفى
عليه سمات البطولة فشبهه بالحماس المنصت أو
السيف الحاد وجعله بمفرده قادرا على هزم
الجمع الكثير من الأعداء :

كان طفلا لو غزا مائة

لم يهله للعدا عدد (80)

وشبهه بالأسد في الصولة والمهابة :

زرات ليثا وأنت شبل

فارتاعت الأسد في البراز (81)

وجعل أسود الغاب ترهبه وتخشاه :

أرهب الزنار في تسعة أعوام فأعوى (82)

فقد أرهب الليث فموى عواء الكلب من الخوف،
ومدحه بقيادة الجيوش حتى إن الأعداء تقشعر

والرصانة التي تتضمن عدة صفات من بينها
الفتنة والذكاء والنبوغ :

يافع نافع زكي ذكي

عقله معقل وسيماه نك (74)

فهو نجيب قد شذ نجابة :

لو كان كل ابن نجيبا مثله

منع الآباء بكا على الأبناء (75)

وهو قادر على إدراك معاني القرآن وفك
المعيات كما أنه ذو قدرة علمية ومعرفية هائلة
حتى دعت أعلام العلوم إمامها . وهو إلى جانب
ذلك فصيح اللسان قوي الحجة يكاد يماثل
خطيب العرب قس بن ساعدة :

فصاحة لو صغت أبادلها

ظننت بقس خطيبها لثغا (76)

وهو ما يوهأ مكانة الحكماء في عصره إذ كان
حسن التدبير سديد الرأي حتى إنه :

قد كان يقعد دهره ويقيمه

طفلا ويبرم أمره ويسوس

ويحل ما عقد الكهول برأيه

ويصيب معنى الشيء حين يقيس (77)

وبفضل سداد الرأي أضفى الشاعر على
المراثي خصلة العدل، إذ يبدو ساعيا بالصلح
بين القبائل وبفض النزاعات، فعلى صغر سنه

وكان لي ولقهر بهنتماك افتخار (88)

وأضحى فخر الأموات والأحياء :

فخرت به الأحياء ثم إذا انقضى

فخرت به الموتى على الأحياء (89)

ولعل من أهم المميزات التي انفردت بها

مراثيات الحصري هي أنه لم يقتصر على رسم

صورة ابنه في الدنيا فحسب بل إنه صورته نزيلا

للجنة متشفعا له وفي ذلك يقول الناقد صالح

مخيمر : إن شاعرا واحدا من شعراء رثاء الأبناء

هو الذي صور ابنه نزيلا للجنة ولمح بتلميحات

بسيطة شائنة مما يدور في ذلك العالم ، إنه

الحصري القيرواني الذي صور ابنه عبد الغني

نزيل الفردوس الأعلى تحف به الحور العين

وتتوفاً عليه بسقيا الجنة وصور ابنه متعلقا به

متشفعا له (90) .

ومصدق ذلك قوله من القصيدة اللامية :

أعبد الغني اخترت دار كرامة

نزلت بها حيث الكرام نزول

حططت جوار الله رحلك

وشقت المعزى هل إليك رحيل؟

رد الكوثر الخلدني فاشرب واسقني

إذا لم يرف ظل علي ظليل

وصل رحمي وأسأل لي الله رحمة

يقول عثراتي إنه لمقيل (91)

لذكره جلودهم :

ولم يغفل الشاعر عن التذكير بشرف النسب

فهو من أشرف فهر ابن مالك وهو من عليّة

قومه وهذا ما يرفعه ويورثه العز والشرف :

وجماع هذه الخصال تجعل الممدوح الميت

متفردا :

إن قلت والله ما أبقى الزمان له

في القوم شيها أبت عليها تحنيثي (83)

قد سعى إلى المجد فحققه إذ نال صبيا ما لم

تنله الكهول :

تسعى الرجال فلا تنال بحرصها

ما نال في تسع من العلياء (84)

ويز أترابه وفاقهم :

ما مثله ولد هل سيان مسك وقار؟ (85)

وهذا المجد لا يخص الفتى بل يعود كذلك على

من هم بجواره من الأهل والقبيلة :

إن الكرام الغر مهما أنجبوا

شادوا ببناء المجد بالابناء (86)

فهذا الصبي ركبت به الدنيا الجموح وله كانت

عبارات الاستحسان :

تقول المعالي كلما أعجبت به

لمثلك قال العرب نعمي وحبذا (87)

وكل هذه الخصال تجعل للفخر مشروعية فقد

زان العشيرة وهو طفل :

وقوله في القصيدة الضادية :

عسى عبد الغني يكون ذخري

فيسقني إذا ورد الحياضا

ويخفض لي هناك جناح عز

عهدت له من الرحم انخفاضا (92)

فقد صور العالم الآخر في أدق جزئياته من عبور الصراط وورود حوض النبي (ص) والشرب منه شربة لا ضماً بعدها أبدا ودعا (باعتباره من الذينين) وابنه (من التقاة) أن يسقيه من ماء الجنة . وقد استلهم صورته تلك من النص القرآني ومن الأحاديث النبوية، فطغى بذلك

النفس الإسلامي على مراثياته، والمعلوم أن تصوير العالم الآخر هو تصوير ما قبلي يعتمد الخيال الخصب، وهو ما يؤكد لنا أن الحصري ابن ابنه بما يمكن أن يكون لا بما هو كائن سواء في دنياه أو في آخرته إذ أبرزه عند الحياة في صورة المقاتل الشجاع وقائد الجيوش الجرارة والمستشار في ما يجد من حوادث الزمان والحكيم الذي كان مقصد الجميع وصاحب المجد وذو الفضل الكبير على عشيرته وقبيلته وكل العرب، مستعملا في ذلك تراكيب ترددت في كل القصائد "مثل لو انتهى العشرين "أو" لو كان عمرك خمس عشرة حجة أو لو عاش "... وصوره في الآخرة نزى للجنة. وهذا ما يغني بنا إلى القول إن ديوان الحصري خير دليل على أن الغاية من

التأبين هي رسم صورة الرجل الكامل أو الرجل المثال لا رسم صورة الميت كما هو خصوصا ولأن المؤبن صبي لا يتجاوز التاسعة من العمر ولم تكتمل عنده ملامح الرجل، إن الديوان يدور حول صبي كادت تجمع المقولات الشعرية على صعوبة رثاء أترابه. فلم يكن أمام الحصري سوى أن يعمل الخيال وأن يفسح المجال لآماله حتى بدا الديوان مجسما لطموح الشاعر إلى النموذج الانساني المفترض بديلا للواقع أو استشرافا للمستقبل .

4- التأمّل :

غالباً ما ينتهي الرثاء بالتأمّل في الحياة والموت، وعادة ما يتسم التأمّل بالانزعان والتسليم للموت واعتباره حظاً مشتركاً ومآلاً لا انزياح عنه لكل الناس مهما علا شأنهم . وكثيراً ما يضرب المثل في حتمية الموت بالعظمة من الرجال الذين خطوا على صفحة التاريخ بانجازاتهم أو بطولاتهم بأحرف من الذهب وفي ذلك يقول ابن رشيق :ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة والأسود (93) . وإننا نتأمّل مراثيات الحصري فيبتدى لنا يقينه التام بحتمية الموت إذ الموت يد يتساوى عندها الشبل والجحش :

لكل حي معات وكل عمر معار (94)

وقد ضرب الأمثال في ذلك بالأسود الضواري :

على الفقيـد، ومثـال ذلك أنه استـهل القصـيدة الحـاثية بحـتمية الموت، على تعـمير نوح في لهـجة هادئة تـوحي بالاستـسلام للأمر المـقضي، لكنـه سرعان ما استـبدل صـوت التـسليم بصـدى نواح الباكيات وبالعـجز على الصـبر :
فكيف الصبر أم كيف التعزّي

ومن عرنينه ولدي ذبيح (98)

الخاتمة :

لقد تأملنا الديوان وتـدبرناه فـاتضح لنا أن الحصري أبـدع شكـلا ومضمونا، فجاء الديوان فريداً في نوعه من المـراثيات لـزم فيه ما لا يـلزم وكشف عن قدرـة لغويـة وأدبيـة قاهرة وبـزّ فيه حسـاده وتجاوز فيه عـديد المـقولات الشعـرية المـتعلقة بمـفروض الرثاء، إذ الديوان يـدور حول صـبّي كادت المـقولات الشعـرية تـجمع على صـعوبة رثاء أترابه .

وقد تآزر عنـصرا التـفجّع والتأبين ليعمقا حرقة الشاعـر على ابنه وليـعـملا من موته مصيـبة لا فـردية هيـئة بل مصيـبة عظمى شـملت النـاس جميعا ومـسّت بشـظاها الأدب العربي إذ كانت السبـب في ضياع أشعار نابغة من نوابغ عصره كرس أغلب عمره في نظم الشعر، فقد أحرق كتبه ضئا بها على من يـنتحلها .

تفخر الأسد أنها فاتكات

ولريب المنون بالأسد فتك (95)

وبالرجال المعظام :

أين عهد تُبـيها أين عهد قيصرها

أين نوالنعيم ونو بؤسها أين

مفـذرها؟ (96)

وبالأنبياء : إذ مات الرسول محمد (ص)، ولم يغن عن سليمان ملكه ولا نبوته، وكتب الموت على نوح عليه السلام، على تعـمير نوح مات نوح إذ أنه عـمر ما يقارب تسـع مائة وخمسين عاما لكنه استسلم للموت في آخر الأمر وكله يقين أن هذه الدنيا مثل بيت ذي بابين دخل من أحدهما وخرج من الآخر .
والحـصري في تأملاته تلك يـلمن الدنيا ويعتبرها دار غرور وأذى ويرى أن لا نـجاة للإنسان إلا بالعمل الصالح :

لا أمن بإيمان غدا غد

ولا سلامة لي إلا بإسلامي (97)

وبذلك كان موت المـرثى داعيا إلى تذكـر حتمية الموت وزيف الحياة الدنيا وإلى التزوّد إلى الدار الباقية .

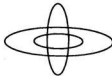
ومما لا شك فيه أن الحكمة تردّ للصبر والتأسي وموقعها عادة في آخر القصيدة، ولكنّ الحصري قد يوردها في البداية، وهو ما لم نعهده في المـراثيات العربية، ثم يمضي في بكائه وتـفجّعه

الاحالات

لديوان

ذيل الديوان

1. الديوان قافية الباء (20 . 29 . 56 . 58 . 60 . 63)
 2. الديوان قافية الهزرة (21 . 34 . 71 . 75 . 84 . 86 . 89)
 3. الديوان قافية التاء (26 . 35 . 83)
 الديوان قافية الجيم (30)
 الديوان قافية الحاء (43 . 61 . 98)
 الديوان قافية الحاء (62)
 الديوان قافية الدال (80)
 الديوان قافية الذال (27 . 39 . 40 . 68 . 87)
 الديوان قافية الراء (49 . 51 . 55 . 85 . 88 . 94 . 96)
 الدسات قافية التايي (65 . 67)
 الديوان قافية السين (22 . 28 . 77)
 الديوان قافية الصاد (48)
 الديوان قافية الضاد (78)
 الديوان قافية الطاء (24 . 44)
 الديوان قافية الظاء (70 . 92)
 الديوان قافية الغين (76)
 الديوان قافية الفاء (23 . 31 . 32)
 الديوان قافية القاف (25 . 33 . 41 . 59 . 69)
 الديوان قافية الكاف (50 . 52 . 66 . 74 . 95)
 ذيل الديوان قافية الباء (46)
 ذيل الديوان قافية التاء (37)
 ذيل الديوان قافية التاء (57)
 ذيل الديوان قافية الراء (73)
 ذيل الديوان قافية الزاي (54 . 81)
 ذيل الديوان قافية الكاف (72)
 ذيل الديوان قافية اللام (91)
 ذيل الديوان قافية النون (47)
 ذيل الديوان قافية الواو (45)
 ابن رشيقي
 ابن رشيقي «العقدة» (16 . 18)
 قدامة بن جعفر
 قدامة بن جعفر «نقد الشعر» (17)
 صالح مخيمر
 صالح مخيمر : ثناء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن 5 هـ (90)
 الديوان قافية الهميم (36 . 42 . 53 . 97)
 الديوان قافية النون (79)
 الديوان قافية الواو (82)
 الديوان قافية لام الألف (38)



خيانة التفاحة

شعر: محجوبة الجلالي

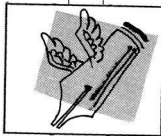
تلاحقتني من
عمق الريح...
جلدُ خطوأتي
وأتيك هناك
يا... فرحي
فلا تقبل بوحك
ولا تعلقه على
أحبة الصمت
ذاك الوقت
ينبش أغنيات الماضي
بجرحتي...
يؤلمني...
يُكيني...
ولن يسأصلَ
حبي منك

بلا ظلك أمشي
أحمل آخر لقاء جمنا
أمشي على جرح قديم
ومشاهد الموت
القريب تقصصني
أخلع خجلي
وأتيك... أتبع
مرافقة آخر
سبجارة...
أمشي...
هاربة من عمري
ومطاردة الوقت لي
أتيك... وأنسى
صبيحة أمني؟
عشق الرجال رذيلة
أهرب من أصوات

تسير مسافاتي
غبار...
أفقد أحلامي
أسعجل حلول القيامة

بلا ظل أحمل بعضي
وما تبقى من همومي
أفتح بابي
أقف على جرحي
هذه انكساراتي
هذه خيانتك
ويستاقحة
ملوثة بالخيانة. /

أقضي أثر انصاري
هذه السنايل ترمو
في مسافاتي
ومردة الغبار
بتطفي ضوءها
ودجهمك مسكون
بالخيرة...
والغيمة الأخرى
توزع الشبه
تترك بك بقاها
الهلاك...
وأشواقنا تسقط
في الحريق..
ألعن بك أيا بني معك



قصيدتان

شعر : ليث فائز الأيوبي - العراق -

* كوابيس بيضاء

ارتعدت فرائص الحلم من الذعر

حالما صحا على صوت

ارتطام أجنحة الكوابيس

على صدره ...

وانكماش الشراشف فوق السرير

... رأى على ملايسه

شعرة .. فجفل !

رأى الهواء يسعل جثته في الأزقة

مرتطما بأكف الدمى الطائشة

رأى مستنقعات آسنة من الكبريت

يغطي سطحها الصفيح

وغبار جراثيم وافدة

من كواكب مريضه

رأى عظام نجوم نافقة

تعرض نفسها

في متحف غنائم حرب فضائية سابقة

رأى التماثيل المصابه بالمنخوليا

تنظم مظاهرة ساخطة

أمام نافورة تغطي عورتها .. بيديها

وترشق إضرابهم

بالبصاق !

* * *

ارتعدت فرائص الوردة

من الذعر

حالما صحت من نومها

فرأت نفسها

وهي تلحس دم عطرها

المنساب من بين أسنانها

وتصغي لصوت انسحاق

غضاريفها

في يدي !

* * *

ارتعدت فرائص الكوابيس من الرعب

حالما أطبقت جفوني عليها

بعنف !

* حياة ... مع وقف التنفيذ

من غرز أظافره في عنق غبطتي ؟

تاركا .. دم التعاسة

يسيل على ملايسي !

جعفران

شعر: الصحفي العلوي

يعانقك يا جعفران
السحابُ

وعند عريش الرموش
يحتضن السوسن أنفاسك

• • •

تراقصت في سامعيك
كعاب التواتي أسرّ العيون
إلى السفح

فانهملت منك أصماغ
سقط الوري

يا جعفران: لقد بلّت الريحُ

أطياب ذاك الثرى

• • •

تقول نائحةُ الفجر

عند انبلاج القبيلة

صوب التلول المعتقة بالهوام

وتتمسّل أساورها من وراء الخضاب

وتعلو بها الحشّرجات

إلى ساطع الشرق

عند حقول الغسق

ترنّو إلى أول المنتهى

يقومُ إذا ماتت المقبرة
والأ.. فطوفانُ عينيه..

جعفرانُ يتيه إلى آخر السيل

بلا مقعد في المقاهي

يجرّ بأحداقه حزن الأماسي

جعفران إذا صلب الزيتُ في النار شكا

رماد الخرائط

إذا ما سقته العواصف أمواجاً

اغتسل جعفران من الموت

وصلى إلى غيمة المنتهى

• • •

جعفران يقوم إذا زلت الشمس

نحو رصيف الحياة

على نابض من جراح الندى

جعفران إذا اشتبه الليل

في يتمه القرمزي

بكى في فم الطفل

عند ولوج الدنى

• • •

وعند اصطفاغ الغدير

إلى جانب الكرم

لاهنّة بالعميون مُكحّلة بالرّمال.

أيا جعفران

اهطل عليّ

فإني دمت الوجود

وطهر أماسي

بالوسن قبل

تعرّق في بؤبؤي

جذور الرّمال

فما زلت حتى أراك

على صهوة القطر

أعرش عند الفجّاج

وأسكب من غيمتي

في قفار المعرات

والأودية

فيا جعفران

تهدّل

وأرسل مع الريح

فلكّ

فإني وأمتدّ

من لاعج الشوق

حتى شفاه الدروب

أقطر من ورق الخرافات

حيثما كنّ

لهالي الرّحيل

على هار أقدامي الناعسة

في أبطن البيد

تتلو على ذكريك

أحاديث عن أول لوّجّد

مواقّد السامرين.

• • •

عاد إذن للرحيل البعيد

ولجلنار الندى يُروي مُحدرات الخدود

على حارق من صليل الرّياح

يجي بعدنان رَسَم القزح

وإن أوما البرق في التلولِ صدى الذّكريات

فما غاد للحلّ سوى ومضات النّوى

• • •

جلنار على غبقر الماء

بدران يسامران

وعدنان يشدّ به الموج

مصلوبا على اللوح المُضرج

شقائك جلنار

محفورا على مرمر المعنى

حروفا من يواقيت الرحيل

• • •

على الريح عهد السروج

إذا عشقت صهوات الدروب

وللقم البقيّة

وعاد على الزمن

قتود نافذة

تشقُّقٌ في حُمَيَّاتِ الهديرِ

• • •

أيا جعفران

ازدجرُ

فإنَّ الرياحَ التي سرقتَ روحك

مشروخة في أقاصي النهايات

على مرمرٍ من بروق

ولكنَّ يظلُّ الصدى

دونه الأحوالُ سقفاً

يعانقك يا جعفران أنحُ الصهواتِ

"هلاً أذاك والحوادثُ جمعةً

بأنَّ إمرا القيس بن تيمك يبقرا."

تصقلُ النور

حبَّاتِ رذاذ

ليشرب من جلتَّارِ رضابِ الغيوم

ويكشف عن زجاجِ القباب

كربِ الافِ النعمتاتِ

وإن صدأت تحت هباتِ الأنين

هو صَبَّارٌ على شروخِ الفخذين

تأكلُ الحيتانُ مواعيدَ الغداءِ

وللشمسِ المشيَّةِ

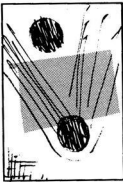
• • •

جعفران يجذف مقصوص الجناحين

بلا آية يقتفي البردَ

ويجمع في المحجرين دماءَ المطرِ

لكي يطرد الملح من كم الحلوق



أهزوجة للوطن

شعر : مختار المومني

* إلى أمّ الجميع .. تونس الحبّ

تهل عليك البشائر

فيصفو الزمان

وتعلو الزغاريد

هنا يا بلادي

في كلّ شبر لنا مهرجان

ودنيا من الحب

والمعجزات

هنا جنة تشدو النوافير فيها

فتزهو الحقول

ويساقط اللوز

والتمر

والعطر

والنور

وينمو على ربوة القلب نجم

يشع على الكون أنسا

وأمنّا

من ... ؟ !
 الحياة .. تلوح لي
 بيد متخشبة
 من سريرها في غرفة الانعاش
 تستجد بي
 بيد بسيل من بين يدي أصابعها القىء
 والحشرات الدميمة ...
 صارخا في وجهها ..
 متوسلا بها .. إياك أن تموتي يا حياتي
 من أجل قنينة دم يتناسل الذباب عليها
 إياك أن تتنازلي عن حياتك
 فأنا على استعداد تام
 لعقد صفقة
 مع باعة الدم على الرصيف
 لكي أشتريها !
 .. مازق .. أن أموت بلا أي معنى!
 ... فلم أكن أتصور
 إن إطار سيارة في هذا العالم الآثم
 أرجح قيمة من حياتي !
 لذلك سأتكور مثل إطار بذىء
 وأجلس أمام الرصيف المقابل ..
 أنفض التراب عن جبیني .
 وأسأل .. من يشتريني ؟ !

تداعيات الرّوح على نسق المواجه

شعر: الهادي العثماني

كنت طفلاً ، أسمر الجبهة
أشدو بيت شعر
واللقا عرس على شفة الصّباح
أينك ؟ يا أيّها الألم المربط في دمي
هلاًّ تجامل لحظةً ؟
هل تخرج للشمس علك تفهم
نسق التّواصل بين أحلامي التي ضيّعتها
ودمي المباح
كم كنت أحلم
أن أرى عرسي بلا شكوى يتامى الجب
تحترق النّواخ
كيف لم تخرج إذن ؟
وخطى النجبية ثمّحي
في درب هذا الليل يسجو
إلاّ من أشواقي يلفح جمرها
تشكو الجراح
لأشتكي للدّهر إلاّ من تفاصيل العنى
وضنى المآسي يلوكني

وتداعيات الرّوح في نسق المواجه
يمتطيها على المدى الألم القراح
للوحي بين قصائدي طيف الرّوى
وصدى لأغنية النّساء
تعيد فيّ طفولتي
وتشدّني للذكريات
آهة مكتومة ، مختومة
بالشمع أو بالدّمع في الأرض البراح
الوحي ...
أعطيناه شرعية الطقوس
ورونق الإلهام يعزف لحنه
متواتر الصّدى الرّياح
من يا ترى ، قد قطر الأعناب ،
واختزل انتشاء الرّوح
وارتجل الضّحى كي يسي ليلا
غير أزمنة الكآبة تعترينا
وتسهل للنّورس المكدود
مكسور الجناح .

أنفاس

شعر : أميرة الرويتي



هل أشفق
على درب
موصود ؟
يفضي فقط
على المحرقه ؟
هل أعانق
أصابعي
عند أعتاب القرف ؟
أم أطبق بوجفي ،
على أنفاس ،
المشنقه ؟!

والكون انهيارُ
فوق الثرى
والثرى طائرُ
مفقوء النظرات
لابفقه النور
زمانا
أعرج القسمات

ماذا تراني
أريد
من جاهل
مبتور العبارات ؟

هل أحرق
كفّي ؟
أم أغتال الكائنات ؟

أبعاد

شعر : إسماعيل الدخلاوي

حمى اللحم تأكل جسدي ...
والحمل طال
ولم يقترب بعد زمن الوضع ...
مخاض ...
لا ثمرة ولا شيء ينمو
والقلب قد عشت الحزن فيه ...
قد عشره
والمسافات مازالت طويلة
و أنت اخضرار على طول دربي ...
* * *
سنون مرّت ... ولا أحد بفقه كلماتي
سنون مرّت .. ولا أحد لنشيدي يغني
كل المواكب في اليمّ تبخر
مرافئها عن الوري
راغبات
والكل باق دون الوصول !!
أحمّ القضاء ..؟
أم أن لسير الزمان بنا خطوات ...
وأنت في دربك ثابتة ؟؟
كما الحال دوما
تشقّين دربا ودربا
وتفتحين نافورة لعشقك الأبدي
وتنأين عني ...
وتسعين أني
الضياء لدربك
فهلأ التحمت بذاتي ...؟
وسرنا سويا
نشقّ دياجير حلم الأنام
نؤسس بعدا للآخرين ؟!
* * *
أنا الجرح يولد دوما جديدا
يُبضّ يروي كل العطاشي
فيهزم طيف السراب
وينشئ معلما للقادمين .

خسارات

شعر : أديب كمال الدين
- العراق -

فأجدها متشابهة كالموت
وأقلب أسماء الأزمنة والأمطار
والجروح والصواعق والنساء
فأرتبك
لأن جسدي الذي قام من موته عشرات المرات
وقلبي الذي قاوم العاصفة والدم والذهب
بكيا أمامي كطفلين يتيمين
واشتكيا لي من ضياع الحلم
بل صرخا من ضياع الحلم
وخرجا كمنجنونين في الشوارع
فما الذي سأفعله سوى أن أعلن :
خساراتي لم تعد تختمل
لم تعد .. لم تعد تختمل
ولذا سأعلن عن ترتيب الأنهار
لأجعلها تذهب من الجنوب إلى الشمال
لأخفف من آلامي ،
سأعيد ترتيب الغيوم
لأجعلها تسافر بالرسائل البريدية
لأخفف من غري طفولتي ،
سأعيد ترتيب الدموع لتكون أكثر غموضا
حتى أعالج حنين منائري الذهبية
فلا يلحظ بكانني أحد
ولا يشمت في أحد .


خساراتي لم تعد تختمل
فأنا أخرج من خسارة لأقع في أخرى
فأنا - على سبيل المثال - مت
مت منذ زمن طويل
وشبعت موتا
وحين قررت أن أقوم من موتي
لاهبس الأخضر بدل الأسود
وراكبا الغيمة بدل الدراجة الهوائية
صدمت بفساد الغيمة
ومزق ثيابها الداكنة
خساراتي لم تعد تختمل
دخلت في النار واحترقت كما ينبغي
وحين قمت من رمادي
وذريته في دمي كي لا أموت من جديد
صدمت حين عرفت
أن من ألقاني في النار : أصدقائي الذين
أعطيتهم نور الأخضر
وأحييت الذين منحتهم شمس الغيمة
فارتبكت لأنني لم أهيء نفسي لدور الفادي
ولم أكن أتصور أن دور يهوذا
سيعاد عرضه في كل مكان بنجاح ساحق
خساراتي لم تعد تختمل
صرت أقلب أسماء المدن

من أغاني الطائر الحكيم أيضا شعر : مصطفى أحمد النجار - سوريا -

* يليق بالحكمة

بعد أن صمت أسماع روحه
زوابع محدودي الرؤية والرؤيا
وأكلت عينيه ظلمات معاصرة
عاد إليك فخذيه
ضميه إليك وساعديه في تخطي
ما هو فيه من أرباكات مزمنة
يا مواني الحب القديم
رويدا سيرسو

لا ... بل متها الكا سيلتجئ
إلى حضنك الوضيء

<http://Archive.com> 

أم رؤوم ... وصدرا يفتسل به
من وعشاء سفر

أضاع فيه بوصلة الروح
ليقلع إلى سفر يليق بالحكمة

* ضد السفر

من الصعب أن ينتظر الغريب
رسالة لا تأتي

فلماذا لا يسافر إليها ؟

* المستحيل

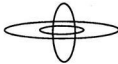
الحب شجرة بعيدة لن يطالها مأزوم الضمير ؟

وتعطلت لغة الرعاة

شعر : سمير تهيمش

سقطت .. فهذا الليل متسع بضيق فلا شراع
ولاجناح يرف في هذا الخريف
ولا حفيف
سقط الشراع على الشراع
سقطت ذوايات النخيل على النخيل سقطت ..
فهذا الليل متسع لأشياء قديمة
توقفت في السفائن
جفت مساريب الحياة
وتعطلت لغة الرعاة ...
سقطت ...
واقفل بابك الشرقي يا قلب
ليندلع الهجير على الفلاة
على بدايات التصدع والسقوط
لأراك مصلوبا على أسوار قلبي
من أين أعبر منك إلا إليك قلبي ؟ وبابنا مازال

مسدودا
من أين أهرب والدم المسفوح في
ومن خلفي الخطى متسارعات
الليل حولي من توسعه تكسر وعيه ...
فهام خلف أبي نواس من الحلول إلى الرحيل
ومن الرحيل إلى الحلول والباب دونك موصدا
والى متى ستظل في عيني خطوك أيها الباب
القديم ؟
الروح مشرعة على «إرم العماد» والسيف
يقط من دمي
وعيون حجاج تهاصرني أراه إذ يضع العمامة
يجتزأ رأسي من جديد
يتقصد المخ بسيف من جديد ...
فالى متى ستظل تزرع ما تقول الريح إن لاقت
نخيل ؟؟



يا حدود أصابعي

بقلم : نصر الدين الخليلي

الثامنة والنصف مساءً ، وأنا أشكو حالي
لصديق تركته على مقاعد الدراسة ، هو الذي
يظن أنني حققت بعض حريتي وخرجت إلى
الدنيا الكبيرة !

استقبلتني الرسالة كما الآن ، كلمة ،
كلمة ، لم أكتب غيرها ، ولم أشك بعدها حالي
إلى أحد :

يا صديقي
أظن أنك تقول الآن ، إن صاحبي خرج إلى
الدنيا الكبيرة ، ويتمتع بالتجوال والاستجمام ،
لا بالعكس . إنني أعمل دهانا في اصطبل كبير
للغنم بهنشير اللواتية ، الذي يبعد عن مواطن
العمران ما يزيد عن العشرة كلمترات . هذا
المكان صحراء على حاله ، حيث لافارس يسر
ولاطائر يطير ، لاحانوت ولاخضار ، ولاشيء
من هذا القبيل ، أنام الثامنة ليلا ، على
موسيقى نباح الكلاب ! وأستيقظ على صياح
الدبكة . عانث على الشكشوكة ، وعلى
هريسة نابل . مصيبة أخرى أعظم : الماء !
ثلاثة أيام وأنا أكاد أموت عطشا . وأخيرا

سمعت عيناى زنبقتين سوداوين .
عيناى تفتحان في الظلام طرقا وأشرطة
ومصائر تأكلت . أغمض عيني فتنساب
الحكايات مألحة أو عذبة فتشقق لها شفتاي أو
يتلمظ لها رقي ، بين المראה والانتشاء .
لكني الليلة وقد أعياني ركض النهار ،
سأركن إلى الحائط المهترئ ، لن أسرح في
تفاصيل خرائطه ، ولن أفصل تاريخا لأبطال
وهمين على شاشته الرطبة القبضاء . الليلة لن
أدير زر مذياع ثرثار لا يخبر بحالي .

الليلة قررت أن أنام ، ولكي أثبت على
ذلك ، حوكت علبتي كرتون . أستعملهما كخزانة
- وراء ظهري كي تمنحاني مسافة أمان ،
تحفظني من الأقدام الرافسة ، ثم أدت ظهري
مخلفا ممشى الوكالة (1) ورائي واستقبلت
الحائط وأغلقت عيني ... لم أنم ! إستقبلتني
أشرطة أيامي السالفة منذ غادرت المدينة
الصغيرة ، منذ غادرت مقاعد الدراسة غرا
ومضطرا ... أذكر ذلك المساء كما الآن :
هنشير اللواتية ، 22 جوان 1978 . الساعة

أشعر بالبرد كلما فتحتة . ومع ذلك لم أنخل
عن احتضانه أبتغي دفئا عله يأتي !
الليلة قررت أن أنام . استعملت كل طاقتي
في التركيز ، أطبقت جفوني باصرار عنيد ، ولما
كدت أفلح امتد أمامي قطيع الشبّاء تموجاً
وثغاً ، وامتمدت يدي إلى عصاي أهش بها
على غنم مانجة ... استرعتني علامة تقاطع
أعادتنني إلى جدول الضرب ولفح كف المعلم ،
ذكرتني بطريقي المقطوع ، بالسيف الذي يقطع
اليد ، بالسكين الذي يحزّ العنق ... نزعت
مرعوباً بدلتى الزرقاء ، لأوّل مرة ألاحظ تلك
العلامة على ظهر البدلة ، علامة الهنشير
مرسومة بشكل فيج . رميت البدلة فزعا وأنا
أهرب بعصيدي بينما تلك الأغنام تنتشر داخل
البقاع تنتشر كالفيضان وتشغور ، وحدود
الهنشير الواسعة تستوعبها وحدود الزريبة
الشوكية تستقدمها والأمواج الشاغية تؤمّ
الزريبة ، وعلامات التقاطع على ظهر الموج
تتلاطم ... إلى هذه الحدود تقطع الشريط في
ذاكرتي وتقلّصت مفاصلي وامتدّ عنقي ودارت
رأسي نصف دورة ... ههات أن أنام . هيهات
والسؤال الخطير ، يتلوّى أمامي كلّ ليلة كحيّة
الكوبرا : كيف ستقوم في الصباح يا حامد ،
وأين ستولي وجهك ؟! هذا الغد يعفس على
أمعاني ويفتّت رأسي كما تشوي سطحة الوكالة
كليتي . أليس للإعساء أن يملّ منّي ويطلقني
كي أتأنّس وكي أخور بكبرة !

استسلمت للماجل ، شطره دود وجراثيم ...
« أشرب وإلا طيرَ قرنك ! » . تعلّمت كيف أصفي
الماء وأغليه ثمّ أشربه . خوك عايش فلاح زوكالي
يرقد على السبّمان ويتعشّى على الكنتولة .
نطبخ فطوري وحدي ونغسل ماعوني وحدي .
في يدي فوشة الجير ، القدم حافية ، والشعر
مشبّش . ماتقولش « مقينة » عليّ (2) . أنا
لي طريقة أتسلّى بها : هناك جرو كلاب ألاعبه
ويتمسّح بساقي ، لكنّه ما عفّ عني إلاّ لما
عضّني من الكعب ...

هل رأيت ماجري لي ... إيّاك أن تنقطع
عن الدّراسة وتقول دتيا كبيرة وخدمة وفلوس
... أما أنا ، فالحمدلله أن المشقة جات خفيفة
وسأرجع في أقرب وقت .

أخوك حامد
ولم يكن الشّقاء خفيفاً كما خمّنت وجناح
الشّبّاب يحملني ، لأنّني سرعان ما حزمت
أمتعتي البسيطة نحو العاصمة . فالدّنيا هناك
كبيرة والشغل لاشكّ وفير . وسرعان ما بعث
سوار أمّي لأكل . ثمّ تخفّفت من الغطاء
الصّوفي الذي سلّمته لي كي أدفأ في بلاد
النّاس ، واستعصت عنه بمعطف من القريب
ومذياع صغير !!

كان المذياع في البدء دافئاً ، تنساب منه
شلالات مياه تنبع في الصّحراء القاحلة فتحوّل
الحسك الشائك تفاعاً ندياً !! ثمّ شيئا فشيئا
اهترأت خيوط المذياع وتأكّل نسيجه فصرت

جاءت ولم تأكل من نهدھا ، والتي وقفت
كنخلة قريتنا أمام صلف الأيَّام ، وقارعت
الرَّجال علما وفناً ... وفازت ... كنت أكبر
وأنا أرقب صولات الجارية وداد ، وأرى فيها
أماً محتملة . أمي هي أيضا أمة القرن العشرين
، يستخدمها الأقارب والأباعد في غسل
الصَّوف ورفس الطَّين الطِّفليّ وفي اللَّقط والجني
والحصاد مقابل الرِّغيف المهيّن . الذي كان يزيده
اتِّكاء زوج على شقائھا ، مزجيا الوقت في
لعب الخريقة مفترشا التراب الأحمر ، هو ورفقة
من الكسالي ... لم أجِد لأبي ممراً يدخل منه
إلى تلك الحكايات ... كنت أراني عليّسا بن
السُّلطان وكنت أودّ لو كانت أمي ودادا .
كانت تلك الجارية تطول والنخلة تكبر ، وتكبر
في الأعناق وتنضج .

أما الآن فقد خبت ، وسمعت عينا زينقتين
في الزَّيالة والظلام ... أمازلت يا حامد راقدا
على الأحلام ؟
صفق الباب بقوة ، ودخلت ريح لاطمة إلى
السَّقيفة الطويلة ، دخل عمّ جمعة خلف
الريّح ، ويعينين خبيرتين بالظلام تطفّطن
لسهادي :

• أنت بعد ، لم تتم ؟
• لا ... وأنت هل عثرت على القرط ؟
• أي قرط ؟ !
• الذي ستهديه لحياة !
• صرت تتفلسف يا ابني ! تصبح على خير ...

وهذه أصوات أجواري تخشخش ، محمّلة
بروائح الرطوبة والكروتون والتَّبغ الرّخيص ،
أصوات تتسلق متعشّرة فضاء السَّقيفة
الطويلة .

• غدوة ... طريحتكم ...
• غدوة تركبوا على ...
• هاتوه تشوفوا آش كون يركب ...
• لا ... خويا ... أنا ... اللي يلعب خير صحّة
ليه ... / وتهتزّ موجات الأصوات منتشية ،
وتدبّ حرارة كحوليّة في عظام كانت باردة
كالإسمنت ، وتسري فيها تموجات كهربائيّة ،
فينسى الكلّ أنّهم يرقدون على أرضيّة وكالة
كانّها اقتطعت من القطب الشّمالي !

وغدا ... ستقوم يا حامد ... وغدا ستدور
كقطّ جانع وستقتطع من الحجر بعض المليّحات
المنهوكّة المعروقة ...

أنا الذي ... لما كنت بقريتي أتأمّل تلك
النخلة الواقفة قرب المدرسة ، وكنت أحلم بأروع
غلة ... كنت أحنّط وأحموك إلى أذنين كبيرتين
وأنا أتشرّب حكايات شيوخ قريتنا ... أسمع
وأسمع أيّما سعادة لأنّي أقف دائما على فوز
الحخير واندهار الشرّ ... علي ابن السُّلطان
يتغلّب على السّاحر الغول ... ويأتي الكساء
بعد العراء وتشيع القلوب ، ويتصاعد الحمد ،
وينجب الأبطال قافلة من الأطفال ... كنت
أعشق تلك الجارية ودادا ذات القوام المشوق ،
والعينين الكبيرتين والشعر الأسود ، والتي

نفسها إليه ، وعسى جسدها الغضّ الأسمر
يحلو أكثر ... لكنّ القريد الكامن على ذاته
كقنفذ ، لما يسكر ينفش أشواكه في كلّ اتّجاه
يرضي روحه الثملى ويضمّد كمداتها :
قال صوت من قاع السقيفة :

لنتهرب يا قريد ... ستجدها في السّوق
... ثمّ من فضلك !

قال ثان :

أرقد بقلة تهزك ... يتشمّم سراويل فرخة !
لوّح القريد بكانون ، اعترض طريقه ، وقد
استوى العنف في ورديه :
سأكسره على رأسك !
قال صوت ثالث بخبث :

ألم تجد ما تكسر ؟!

وانتفض بواب الوكالة ، وقد همّه أمر الكانون :
لا . قريد ابعيشك ... الكانون لا !
قلت أكسّره . لا بدّ أن أكسّره . الويل لمن
يعترض طريقي . الويل للكانون .
واعترض قدّور البواب طريق القريد السّكران ،
وبذلك كان قدّور جديرا بأن يرى كانونه مكسّرا
على رأسه !!!

بينما راح القريد يتسبّك على السّطحة ،
ويغنّي شذرات أغنيات منفلتة متنافرة ...
وسال خيط البول أفغوانيا مع منعطفات أرضيّة
الوكالة وانحداراتها المغطّاة بحجارة جصّ عتيقة
، سال تحت أنفريشة الكرتون ، تحت الأرجل
المستلقية في أمان ، عمّ البقاع الوطنية ... حام

تصبح ... وتغسل وجهك !

عمّ جمعة ... ياعمّ جمعة ... أحيانا
أغبطك يا فارس السّتين ، فارس السّتين ظلّ
يركب الحياة . لم تطرحه ولم تعشقه . يحاول
دائما أن يرضي نزواتها ومزاجها وتقلّباتها .
أمّا هي فلم تلعه لأنه لم يلجها ولم يغتصب
أسرارها .

يبدو لي أنّه يلاحق مزايل المدينة شطرا من
الليل علّه يعثر على قرط ذهبي يهديه حياة .
والى الآن هو دائب البحث عنه ، ويقول ببساطة
إنّ الناس أمسوا أشحاء ، لا يرمون بغير علب
المصبرات الفارغة وقشور البطيخ وأجنحة
الذّبان !

يصفق الباب ، صفقة مدويّة . والباب في
الوكالة دائم الانصفاق والصّيرير . ويرقي مع
لطمة الهواء الحادّة شيء بين الكتلة اللّحميّة
المصهودة وبين كرة المنصرمة ، إنّه لاشيء آخر
غير « القريد » وهو يتعثّر في خوخة الباب
العتيق ، في العتبة الخشبيّة ، في الدّكة ، وفي
كلّ شيء . عيناه وحدتا جمر وعقيرته تنبّح
متحشجة .

اللّعنة على بنت الكلية ... ضحكت عليّ ...
الليلة أنه ...

أفاقت الرؤوس في السّقيفة وضحكت
العيون في صمت . الكلّ يعرف القصّة ... ومن
لم تهزّه فوارة حياة بنت السّوق . والقريد
يهديها من الطّيّبات ألوانا ، عسى تطيب

منفلتة .

قال صاحب القُبعة الزرقاء الداكنة :

- أين بطاقة تعريفك ... بطاقة عمل ... بطاقة
سوابق ... بطاقة ... بطاقة ...

كنت أودّ أن أقول لصاحب القُبعة :

- «إني كنت أقف في الطابور طويلا ، وكان
يسعفني الحظّ وألاقي وجه المسؤول ، لكن الحظّ
وحده هو الذي يعود عليّ فيتنكر لي فأنسى
صورة أو بطاقة أو فيزيحني المسؤول
مضطرا وعلى وجهه علامات الأسف والإشفاق
... تلك أمور إداريّة ...»

لكنني لم أقل لصاحب القُبعة شيئا من ذلك
، لأنّ كفه لهبطتي - ومعها حقّ - فربّما كنت
تفرّقت بما ظننته حبس نفسي ، أو ربّما يكون
صاحب القُبعة الدكاء قد قرأ خيالي .

كفّ الحوت ، انفتح باب سيّارة الشرّطة ،
تلك المتكومة على نفسها ، والتي تطلق عليها
تجاوزا اسم «رابحة» أو «تاكسي الغرام» ،
تخفيفا لوطء قسوتها أو لإضفاء نوع من الدلال
على اسمها ، فنسمّيها بأجمل الأغنيات وقعا
في نفوسنا أو بأجمل بطلات السّينما المغريات ،
في عيوننا ... لكنّها رغم محاولاتها تبقى
السيّارة الأكثر إلغازا في أذهاننا البسيطة ، من
ذلك لونها الرّمادي القديم انشطر إلى بياض
وسواد !

امتدّت رؤوس صحيبي تتصاعد نحو
السيّارة ، حالكة مستكنة .. وامتدّت أمامي

البول حولنا طوفانا ساخنا مزكّما ! كدنا نغرق
لولا أن ... تكوّنت قارة سادسة ! الغريب
وقتها أن فكرة عنّت لي ، والصّخب يعلو
فضاء الوكالة ، والرائحة تزكم الأنوف :
- لن أنام الليلة . اللعنة عليها . سأمضي كامل
نهارني القادم نائما . ثم سأذهب ليلا مع عمّ
جمعة !

هذه الفكرة لم تخطر من قبل ببالي مطلقا .
ولكن هذا هو قراري الآن ، وما عليّ إلا أن
أوقظ عمّ جمعة كي يباركه .

وطفت أهرم عمّ جمعة ، لكنّه كان يغطّ
غطيطا مسموعا لم يكن مستعدا البتّة ليتنازل
عنه لفائدة ذلك الفضاء الصّاخب .

ارتفعت بجذعي عن مفرشي ، أتطلع ...
فاذا بالقريد مطروح الكرش ، مبعثر السّاقين ،
منفتح الفخذين ، منفرج السّروال ، غاري السّرة
، كبش ملطوخ ... وإذا بالباب يطقّ ، طقطقة
قويّة ، فتندفع موجة من القُبعات الزّرق الداكنة
في الظلام .

- سيطلبون كواغدنا . نحن نعرف هذا . ونعرف
أيضا أننا لا نملكها . نحن نعيش في الوكالة
بلا أوراق . إنّها مكلفة ومقلقة وغير ذات
جدوى ! فلماذا نجبر على استحضارها ؟ !

كنت أبتسم ، ابتسامة خاصّة جدا ،
فتتدلّى شفتي السّفلى كمعيّ منفلت ، لكن
الغريب أن شفاء كلّ من حولي من الرقعة كانت
تنواطأ مع ابتسامتي وكانت كلّ الشّفاء أمعاء

منفلتة .

قال صاحب القُبعة الزَّرَقاء الدَّاكنة :

.. أين بطاقة تعريفك ... بطاقة عمل ... بطاقة
سوابق ... بطاقة ... بطاقة ...

كنت أودُّ أن أقول لصاحب القُبعة :

« إنِّي كنت أقف في الطَّابور طويلا ، وكان
يسعفني الحظُّ وألاقي وجه المسؤول ، لكن الحظُّ
وحده هو الذي يعود عليَّ فيتنكر لي فأنسى
صورة أو بطاقة أو فيزيحني المسؤول
مضطركا وعلى وجهه علامات الأسف والإشفاق
... تلك أمور إداريَّة ... »

لكنِّي لم أقل لصاحب القُبعة شيئا من ذلك
، لأنَّ كُفَّ لهطنتي . ومعها حق . فربَّما كنت
تفكرت بما ظننته حبس نفسي ، أو ربَّما يكون
صاحب القُبعة الدَّكَّاء قد قرأ خباياي .
كفم الحوت ، انفتح باب سيَّارة الشرطه ،
تلك المتكومة على نفسها ، والتي تطلق عليها
تجاوزا اسم « رابحة » أو « تاكسي الغرام » ،
تخفيفا لوطه قسوتها أو لإضفاء نوع من الدلال
على اسمها ! فنسمِّيها بأجمل الأغنيات وقعا
في نفوسنا أو بأجمل بطلات السِّينما المغريات ،
في عيوننا ... لكنَّها رغم محاولاتها تبقى
السيَّارة الأكثر إلغازا في أذهاننا البسيطة ، من
ذلك لونها الرَّمادي القديم انشطر إلى بياض
وسواد !

البول حولنا طوفانا ساخنا مزمكا ! كدنا نفرق
لولا أن ... تكوَّنت قارة سادسة ! الغريب
وقتها أن فكرة عتت لي ، والصَّخب يعلو
فضاء الوكالة ، والرائحة تزكم الأنوف :
.. لن أنام الليلة . اللعنة عليها . سأمضي كامل
نهاري القادم نائما . ثمَّ سأذهب ليلا مع عمِّ
جمعة !

هذه الفكرة لم تخطر من قبل ببالي مطلقا .
ولكن هذا هو قراري الآن ، وما عليَّ إلا أن
أوقظ عمِّ جمعة كي يباركه .
وظفت أهنم عمِّ جمعة ، لكنَّه كان يغطُّ
غطيظا مسموعا لم يكن مستعدا البتَّة ليتنازل
عنه لفائدة ذلك الفضاء الصَّاحِب .

ارتفعت بجذعي عن مفرشي ، أطلع ...
فاذا بالقريد مطروح الكرش ، مبعثر السَّاقين ،
منفتح الفخذين ، منفرج السَّروال ، عاري السَّرة
، كبش ملطوخ ... وإذا بالباب يطقُّ ، طقطقة
قويَّة ، فتندفع موجة من القُبعات الزَّرَق الدَّاكنة
في الظلام .

.. سيطلبون كواغدا . نحن نعرف هذا . ونعرف
أيضا أننا لا نملكها . نحن نعيش في الوكالة
بلا أوراق . إنها مكلفة ومقلقة وغير ذات
جدوى ! فلماذا نجبر على استحضارها ؟ !

كنت أبتسم ، ابتسامة خاصَّة جدا ،
فتتدلَّى شفتي السفلى كمعي منفلت ، لكن
الغريب أن شفاه كلِّ من حولي من الرقعة كانت
تتواطأ مع ابتسامتي وكانت كلَّ الشفاه أمعاء

ثلاث قصص قصيرة جداً



بقلم:

شدري معمر علي

البويرة - الجزائر

القصة الأولى:

وداعاً أيها الموت

بين الحياة والموت مسافة قصيرة، خطوة تخطوها وينتهي كل شيء، تضع حداً لكل الصراعات.. هكذا كنت تفكر وأنت في طريقك إلى الجسر المعلق فجأة تمر أمامك، نظرت إليك بعينين يغمرهما الصفاء، شعرت بانتفاضة في الأعماق كعصفور بلله القطر، تراجعتم قليلاً. ومن ذلك اليوم أدمنت الانتظار، نسيت فكرة الموت أقبلت عليك أرياح الحنين والشوق واستيقظ في قلبك ذلك المارد الجبار.

القصة الثانية

عبث الأقدار

أفنى حياته في الكتابة والابداع، ضيع كل ما يملك من أجل شراء الكتب، حرم أسرته من ضرورات الحياة ومضى قطار العمر يجزّ عرياته المفعمة بالخيبة والفشل ولم يكن من رحلة الزمن إلا الضحك ووجع الضمير، ولما قرأ في جريدة الخبر أن تلميذة في الثانوية فازت بجائزة القرن في الشعر

ومقدارها خمسمائة ألف دولار ومنحة دراسية إلى أمريكا أحس بدوران، مزق الجريدة خوفاً من أن توبخه زوجته فكم من مرة قالت له: سبب تعاستنا هو هذه الكتب اللعينة المكدسة في كل مكان حتى في خزانة الملابس المهترئة

القصة الثالثة

من يشتري كليتي

لأول مرة يمسك بين يديه هذا المبلغ الكبير، لقد ابتسم له القدر، هاهو الآن يودع سنوات الفقر والعوز.. يستطيع أن يشتري بيتا كبيرا وليس أحسن الشباب ويقدم لابنته سهى أجمل الهدايا.. وعندما كان مستلقيا على سريره يقرأ الجريدة صادفه إعلان غريب: إنسان يريد بيع كليته ليعمل أسرته ويداوي ابنته المريضة شعر بألم عميق.. وفي تلك الليلة الصيفية الهادئة لم ينم فكر في مآسي الإنسانية، في ملايين الفقراء المعذبين الذين غاقت بهم الأرض على سعتها.. ومع إشراق الصباح أخذ العنوان واتجه إلى صاحب الاعلان وكما كانت فرحته غامرة، أخيرا وجد من يشتري كليته..

أدخل سيفه حجرة متواضعة.. اجتمعت الأسرة مرحبة به.. شرب فئجان قهوة وأخرج شيكا بمبلغ كبير سلمه لرب البيت مساعدة متواضعة.. ولم يصدق.. انهمرت الدموع من مقلتيه، وتقدمت المجوز لتقبل يده فانتزعها منها وطلب دعوات الخير.. في كل اللحظات فقط شعر بنسمات الهبة تهب عليه فتحيله إلى روح طاهرة تسبح في فضاءات الإشراق

انتهت بمقهى الفرسان يوم: 2000/10/05 م

« كلما مرّت أمام المقهى مسرعة

أطرد قهوتي

وأقول :

تلك حبيبتى

أو كان يمكن أن تكون حبيبتى

.....



..... (قصيدة لكمال بو عجيطة)

لا شئ يغربنا برسم خريطة لرحيلنا

ورحيلنا لا شئ يعنيه

ركبنا البحر كي نرسو على أرض

فضيعنا مطالبنا الصغيرة :

بيتا جبيل

وأننا قولنا لدف البسب

طاولة بجمعنا صباها أو مساء

حديقة مترًا مربع

وحبيبتى لا ترفض شهادتنا

لو كنا معًا قبل البداية

ما زال يحدث

يا قصيدتي اليتيمة

ما زال يحدث ،

وأنا صنا ...

لا توشى فهمت مزاجي

ولا النساء عذرتني

ولا النساء قادتي يومًا إلى المسمي